«كلمن»

توهمات في المفردة العربيّة

أحمد بيضون

ك ل م ن اربعة احرف . جاءت متوالية في الترتيب الابجدي . وحفظ لها تواليها في الترتيب الهجائي . ولم يتحصل ذلك لاربعة سواها من الحروف . فحفظ الجدول الهجائي العربي ـ وهو مستجد (١) ـ ما كان ماثلا في الجدول السرياني ، وفي الفينيقي قبله ثم في اليوناني وفي اللاتيني على اثره . وظلت شعوب احدث عهدا بالكتابة من الفينيقيين والعرب والسريان واليونان تقول K,L,M,N (٢) بل ان لفظة Elementum ومعناها « عنصر » ركبت على هذا التوالي (٣) . فكأن كلمن هو عنصر اللغة ، وهو ، لذلك ، اسم الكلام .

ولا غرو ! فكلمن ، في ما يروي العرب ، ملك ملوك . ملك ملوك مدين . هلك مع قوم شعيب في عذاب الظلة . ورثته ابنته فقالت :

كلمن هدّم ركني   هلكه وسط المحلة (...)

اما اركان كلمن من الملوك فكانت اسماؤهم : ابجد ، هوز ، حطي ، سعفص ، قرشت ! وجعلت بعض الروايات ابجد ملكا على مكة والحجاز ، وهوز وحطي ملكين على الطائف ونجد ، والثلاثة الباقين ملوكا على مدين . وقد رتبوا حروف العربية على اسمائهم ،

---

١ ـ « دائرة المعارف » (بادارة فؤاد افرام البستاني) ـ **المجلد الثاني ـ مادة « ابجد »** . ويفيد النص ان الجدول الهجائي ظهر بعد الاسلام وانه يرقى الى مطلع العهد العباسي على الاقل .

ابن منظور : **« لسان العرب » ـ المجلد الاول ـ طبعة دار صادر مقدمة المؤلف** . ويظهر منها ان الخليل وسيبويه رتبا الحروف تبعا لتصنيف مخارجها واختلفا فيه .

٢ ـ **الشدياق (احمد فارس) : الجاسوس على القاموس** ـ ص ٤٢ **قسطنطينية ١٢٩٩ هـ.** « دائرة المعارف » م م. مادة « ابجدية » .

٣ ـ **MOUNIN** (Georges : «**Histoire de la linguistique**», p. 82 Paris 1974.

فوجدوها ناقصة فأضافوا ثخذ ضظغ وسموها الروادف . وسمى سيبويه ابجد اباجاد ، وسمى المسعودي قرشت قرشيات . فقربت الاسطورة نفسها من المألوف ، وامكن القول ان ملوك الزمان هؤلاء حذفوا من حروف اسمائهم ما كان مشتركا وابقوا ما تبقى . (٤)

وسواء عند ملوكنا الاكارم ان نأخذ بهذه الدعوى وان نردها . فما يهم اصحاب الاسطورة — ان كان لها اصحاب — هو ان حروف اللغة مثبتة في اسماء ملوك . وقد يعن للعامة ان تعصى الملك ، لكن العامة تتبدد رمادا في الآفاق اذا عنّ لكل عامي ان يحور اسم الملك على هواه . فالطاعة للحرف واجبة. وكلمن ملك الملوك لانه (الى امتلاكه احرف الكلم منونة) يملك احرف الملك مجتمعة : الميم واللام والكاف . فيا له من جبار ، له السلطة وله المعرفة !..

ونحن سنسقط هنا احرف كلمن واحدا واحدا ، حتى يبدو لنا الملك عاريا فيموت . وحين نخلص من ملوك الارض ، سنرى ان وجه الله يبقى ، وهو حرف واحد .

ادراك « القلب » بالقلب

يمسك ابن جني بتلابيب كلمن فيجتث منه نونه ثم يقلبه على وجوهه وهي ستة : «كلم»، «ك م ل» ، «ل ك م» ، «م ك ل» ، «م ل ك» ، «ل م ك» . ويقول ان هذه الاصول « حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة » . ويضيف ان الخمسة الاولى منها مستعملة . اما « ل م ك » فاهملت « ولم تأت في ثبت » . على ان محقق « الخصائص » الفطين يستدرك على المؤلف في الهامش : « كأنه لم يصح عنده ما رواه المفضل : ان التَّلَمُّك تحرك اللحيين بالكلام او الطعام ، وقالوا : ما ذقت لماكا اي شيئا . وانظر اللسان (يقصد معجم ابن منظور) » . (٥)

ولا مسوّغ للتوقف عند معنى « القوة والشدة » في « كلم » بمعنى « جرح » ولا في « كمل و « لكم » ولا في « ملك » التي يهملها ابن جني . فالمعنى المذكور ظاهر فيها كلها ، والثلاثة الاولى منها الفاظ ما تزال مشهورة . اما مكل فمنه « بئر مكول ، اذا قل ماؤها كره موردها ، وجفا جانبها . وتلك شدة ظاهرة ».

بقي الكلام . فأين وجد فيه ابن جني معنى القوة والشدة ؟ ولماذا قالوا « كلم » للجرح و « كلم » للكلام . يجيب صاحب « الخصائص » : « ذلك انه سبب لكل شر وشدة في اكثر الامر » .

ويوشك ما في هذا الجواب من تكلف ان يودي بالصرح كله . لكن مرحلة الحرج لا تطول . فلا يلبث ابن جني ان يصل الى وجه الفرق بين القول والكلام ، فيقول : « اما الكلام

---

٤ — **الشدياق مم.** ص ٤٢ — ٤٣ .

السيوطي : المزهر في علوم اللغة وانواعها . المجلد الثاني ص ٣٤٨ **القاهرة ل.ث.** وهو يروي البيت : كلمون هد ركني (...)

اما قصة شعيب وقومه فهي مذكورة في سورة الاعراف .

٥ — **ابن جني : « الخصائص »** بتحقيق محمد علي النجار . المجلد الاول . ص ١٣ — ١٧ — القاهرة . والشواهد اللاحقة حول « كلم » هي من هذه الصفحات .

فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه (...) واما القول فأصله انه كل لفظ مذل به اللسان، تاما كان او ناقصا . (...) فكل كلام قول ، وليس كل قول كلاما . »

ولا يرتب ابن جني علاقة صريحة بين استقلال الكلام او انتفاء النقص عنه وبين معنى « القوة والشدة » . اما نحن فنرى السر كله ها هنا . ففي الجزيرة كان حافظ « الكلام » الكامل هو صاحب القوة . وكان الكلام للسلطة وما سوى السلطة قولا بقول . ولم ينقض الاسلام هذه العمارة . واشار ابن جني نفسه الى ان القرآن يسمى كلام الله ولا يسمى قول الله ، لان « هذا موضع ضيق متحجر » لا يجوز فيه التصحيف ولا التحريف .

بقيت العلاقة بين الكلم (بتسكين اللام) والكلم (بكسرها) . فيسأل عنها هيفل ما دام قد وجد الكلام سلبية تغري الكائن بالتحليل وتدمر وتقتل . ويسأل عنها من وجد ، بعد هيفل ، ان الكلمة جرح في خاصرة الشيء وان الوجدان الذي يحملها «ثقب في الكون» . ويسأل عنها كل من سمع ، في اية لغة ، «كلمة جارحة» .

ما زال كلمن ملكا . .

لعبة الابدال

يطلق اهل اللغة اسم « الاشتقاق الكبير » على هذا التقليب لاحرف اصل ثلاثي ما ، بغية استخراج الاصول الاخرى التي تتكون من هذه الاحرف نفسها . ولا بد لهذا الثلاثي من ان يكون سالما ، لا ناقصا (لامه الف ساكنة) ولا اجوف (عينه الف ساكنة) ولا مضاعفا (عينه ولامه حرف واحد) .

اضف الى هذه الاصول المستثناة من قاعدة الاشتقاق الكبير ، ان القاعدة المذكورة لا تطرد في الثلاثي السالم كله ، وان كثر عملها فيه ، على ما يشهد به ابن جني . (٦) ولما كان اشتراك الاصول المتأتية عن اعمال هذه القاعدة في معنى عام (مع احتفاظ كل منها بمعناه المخصوص) هو المظهر لسلامتها والدافع لاعتبارها سبيلا اصيلا الى تكثير الالفاظ (٧)، فقد جاز التساؤل عن القول في اصول تشترك ، هي ايضا ، في معنى عام ، الا انها، من حيث اللفظ ، لا يشترك كل منها مع شبيهه الا بحرفين او بحرف واحد . من ذلك قرب معنى الثلاثي المضعف من معنى ثلاثي سالم لا يختلف عنه ، لفظا ، الا بلامه . او قرب معنى الثلاثي السالم من معنى ثلاثي سالم آخر لا يشترك معه ، لفظا الا في اللام . الخ . . وصيغة التساؤل هي الآتية في الحالة الاولى : ايصح اعتبار الواحد منهما اصلا للاخر ؟ وهي الاتية في الحالة الثانية : ايصح اعتبار الحرف المشترك علة للتقارب في المعنى ؟

وقد كان اول من سار بالمسألة الاولى الى غاية منطوياتها احمد فارس الشدياق ـ فجعل المضاعف اصلا للسالم ورتب على ذلك كتابا (هو « سر الليال في القلب والابدال ») يشبه

٦ ـ « **الخصائص** » ١ ـ مم ٠ ص ١٣ .

٧ ـ **علي (اسعد)** : « **تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي** » ـ ص ٥٩ ـ ٦٣ **بيروت ١٩٦٨** . وسيرى القارىء اننا لا نميل الى الاخذ بهذا الرأي .

ان يكون شجرة انساب لالفاظ اللغة تتكاثر فيه من جدود قلائل .

« وها انا اذكر لك بعض الاسباب التي سولت لي ان اعتبر المضاعف اصلا . احدها اني رأيت **ان معظم اللغة ماخوذ من حكاية صوت او حكاية صفة** . وان حكاية الصوت انما تأتي من المضاعف نحو دب و دف ودق وهز وسف وقر . فاذا ارادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا دبدب ودفدف ودقدق وهزهز وسفسف وقرقر . فقولهم مثلا هزهز وحثحث ان هو في الحقيقة الا هز هز وحث حث (. . .) على اني اقول (. . .) ان الفعل في الاصل كالاسم في كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله فاذا اتصل بفاعله فتح . وتقرير ذلك ان الواضع لما وضع قد ودق **لم يقصد بها في اول الامر ان تكون فعلا ولا اسما** بل مجرد حكاية لصوت **توهمه** بقطع النظر عن شيء آخر . (. . .) ولهذا كثيرا ما ترى صيغة الاسم والفعل في هذا الباب واحدة . » (٨)

يرى الشدياق اذاً ان المضاعف ليس في الاصل ثلاثيا بل هو ثنائي. وتظهر ثنائيته متى وقفنا عليه بالسكون . لذا صح ان نعتبر وقوع الابدال على لام المضاعف ، في الحقيقة ، الحاقا ، اي زيادة لحرف جديد في آخر الثنائي ، لا استبدالا لحرف جديد بلام المضاعف . فهذه اللام ، في ما يرى الشدياق، الحقت لاتاحة الحركة ، عند دخول الفعل على الفاعل ، وهي ــ باعتبار الاصل ــ في حكم النافلة .

وقد كنا قلصنا مملكة كلمن ــ مع ابن جني ــ الى ثلاثة احرف . فنبقي منها الان على حرفين اثنين هما الاول والاخير : « ك ن » . وهي في المعاجم « ك ن ن » اي ، بصيغة الفعل المضاعف كن (بتسكين النون ثم فتحها) . ومعنى كن في « لسان العرب » ستروصان . ومنه"الكن وهو « ما يرد الحر والبرد من الابنية والمساكن » و « الكنانة » وهي «جعبه السهام» الخ . .

حتى اذا شئنا ان نلعب لعبة الابدال التي يقترحها علينا الشدياق الى آخرها ، كان علينا ان نأخذ حروف الجدول الهجائي ، كل واحد على حدة (باستثناء النون ، وهي لام «كنن») ، ثم نلحقه بـ «كن» . . فيتحصل لنا ، نظريا ، سبعة وعشرون لفظا يضاف اليها « كنن » نفسه فتصبح ثمانية وعشرين. بعدها نفتح معجما ما لنحقق معاني هذه الاصول ومشتقاتها ونرى اولا ان كان اشتراكها في العين والفاء قد غادر فيها جميعا معنى مشتركا بعينه .

وقد لعبنا اللعبة المذكورة ، وبحثنا عن هذه الاصول في « قاموس » الفيروزبادي وحققنا معاني ما وجدناه منها ، في «لسان» ابن منظور. ولم نعثر على سبعة وعشرين اصلا بل على خمسة عشر فقط . فجفا عن اللحاق بنون « كن » اثنا عشر حرفا هي الهمزة والجيم والحاء والخاء والذال والضاد والطاء والغين والقاف والكاف واللام والواو .

وبين الاصول التي وقعنا عليها واحد لم يثبته « اللسان » هو « ك ن ت » وآخر اعتبره « اللسان » دخيلا هو « ك ن ر » وثالث (هو « ك ن ص ») قال عنه انه يروى بالسين

٨ ــ **احمد فارس الشدياق : « سر الليال في القلب والابدال »** ص ٢٣ الاستانة ١٢٨٤ هـ. والتشديد منا .

وبالصاد ، فنعتبره مائلا في ك ن س ، ورابع (هو « ك ن م ») تردد « اللسان » في امره ، ولم يثبت المعجمان منمشتقاته سوى «الكنمة» ومعناها ــ اذا صح وجودها ــ الجراحة . فاذا اسقطنا هذه الاربعة ، لم يبق بين يدينا الا احد عشر اصلا ، اثبتنا معانيها في الجدول الاول الملحق بهذا المقال . (٩)

وتفيدنا النظرة الاولى في هذا الجدول ان بعض الاصول المذكورة لا يشتق منها فعل . وهي ١ ــ « ك ن ث » التي ذكر المعجمان من مشتقاتها كلمة وحيدة هي « الكنثّة » وذكر صاحب « اللسان » مرادفا نبطيا لها وصحح اعرابها على نحو يوحي انها من اصل رباعي او انها دخيلة او مشتركة بين النبطية والعربية . ٢ ــ « ك ن د » ٣ ــ « ك ن ش » . اما « ك ن ه » فليس منها فعل ثلاثي . بل منها مزيدان همان اكنه واكتنه . وسنرى ان لذلك شأنه في ما نحن ذاهبون اليه .

وتفيد النظرة الثانية في الجدول نفسه ان الاصول المثبتة فيه كلها قد احتفظت بعد الابدال ، بمعنى مشترك هو اجتماع الاشياء بعضها الى بعض واستتارها في حيز يقيها ، او تضام اجزاء الشيء الواحد بعضها الى بعض وكأن الظاهر منها حرز للباطن .. وذلك هو ، على وجه الدقة ، معنى « كن » .

غير ان هذه الاصول كلها لا تدل على الاشياء المجتمعة نفسها ، بل على ما يتولى جمعها او على ما تجتمع فيه او به . أي انها ، متى جاءت بصيغة الفعل المجرد ، كانت وجهة الفعل من الخارج الى الداخل ، وكأن الاشياء لا تجتمع او تستتر تلقاء ذاتها بل من جراء قوة برانية . وبشبه الامر ان تكون هذه القوة تشد من الخارج نحو الداخل . وسنرى ان هذا ايضا حري بفاية الاعتبار .

ك ن ن ذهابا ، ن ك ك ايابا

على ان للعبة الشدياق وجها آخر . فهو ، بعد ان يشبع المضاعف ابدالا يقلبه . وقد راينا « ك ل م » ومقاليبها .. ويختلف الامر كثيرا مع « ك ن ن » ، لان هذه ليس لها الا مقلوب واحد هو « ن ك ك » . والمعجب ان التضعيف ينتقل راسا ، عند القلب ، من النون الى الكاف ، فلا نقول : « ن ن ك » .. ولا نقول « ك ك ن » ، اذا فرضنا ــ جدلا ــ ان « ك ن ن » هي المقلوبة من « ن ك ك » .. ولعل في الامتناع عن جعل فاء الثلاثي وعينه حرفا واحدا مكررا ، (باستثناء الهمزة لانها ان جاءت فاء وعينا ، ابدلت العين **بألف ساكنة** ، كما في « آب » مثلا ، وهو امر تنفرد به) دليلا ــ لم ينتبه اليه الشدياق في ما نعلم ــ على ان اصل المضاعف ثنائي .. اي ان لامه مقحمة عليه لتحريكه عند دخوله على الفاعل .

ما معنى « ن ك ك » ؟ لا نجد اثرا لـ «نك» بصيغة الفعل الثلاثي المضاعف في المعاجم . الا ان « اللسان » يقول ــ ويتبعه « القاموس » ــ تحت هذه المادة : « نكنك غريمه اذا تشدد عليه » . وليعذرنا ابن منظور والفيروزابادي، اذا نحن طعنا ــ مع حفظ النسب جميعا بين المقامات جميعا ــ في سلامة هذا التعبير . وذلك ان من المحال ان تكون النكنكة ــ الا على سبيل المجاز ــ تشددا أي شدا ــ فالشد حركة متجهة نحو الداخل ، نحو وجه الفاعل ــ اذا توهمناه بشرا ــ وهذا هو معنى الكن !

٩ ــ انظر الملحق الاول هنا .

ولا يمكن ان تكون النكنكة الا غمزا ولكزا للفريم – أي للمفعول – او لظهره ، ان شئنا الغلو في التخصيص ! .. ولما كان التشدد على الفريم – نحو الاخذ بخناقه – حركة مستمرة لا تقطع فيها ولا تكرار ، صح القول مثلا : كنظ غريمه اي كنه كنا شاقا حتى كاد يزهق نفسه . ولما كان اللكز والغمز في ظهر غريم مدبر حركة لا مناص من تكرارها – خصوصا اذا كان الفريم بليد الحس ، متعنتا – فقد بقيت لنا «النكنكة» وضاع « النك » من المعاجم !

والخلاصة ان « النك » – اذا صح وجوده في اصل النكنكة – هو مقلوب الكن لفظا ووجهة فعل .

الخلاصة ؟ ما بالنا وصلنا الى الخلاصة قبل اقامة الدليل ؟ .. وليس من سبيل الى الدليل الا الابدال . فقد رأينا ان الالفاظ التي تحصلت لنا من ابدال حروف مختلفة بلام « ك ن ن » ، قد بقيت في دائرة المعنى العام لاصلها واحتفظت بوجهة الفعل من هذا الاصل . هكذا عدنا الى الوجه الاول من لعبة الشدياق .

قدم لنا الجدول الاول اصولا تضم كلها وتستر ، فيبدو كل منها وعاء او حركة تقبل الاشياء او اجزاء الشيء قبولا يذهب من الصون والحدب الى الكرب والخنق . اما الجدول الثاني (١٠) الذي يتأتى لنا من ابدال لام « ن ك ك » بمختلف الحروف تباعا ، فليس فيها الا ما يفل ويشعث ويلكز ويباعد ويقلل ويفرغ . ويبعث النظر فيها شعورا بالقرابة بين معانيها لا يكاد يوجب التمحيص ، ويتيح ادراكا فوريا لكيفية انبثاقها من الاصل المشترك « ن ك ك » .. رغم ذلك ننعم النظر .

في الجدول الثاني هذا ثمانية عشر اصلا . اي ان تسعة احرف فقط انفت من اللحاق بالكاف . وهي الجيم والخاء والذال والضاد والطاء والغين والقاف والنون والواو . وتخرج من هذه الاصول كلها – باستثناء واحد هو « ن ك م » – افعال ثلاثية . ولها كلها – اذا اعتمدنا معانيها الحسية – وجهة واحدة هي تلك التي افترضنا وجودها في ن ك ك ، وهي وجهة الدفع الى خارج الفاعل ان صحت العبارة . فالحركة هنا تتجه نحو مفعول لتثنيه عن مواجهة الفاعل وتجبره على الادبار او على النزول او على التبدد . واشتراك هذه الوجهة في جميع الافعال المذكورة هو الذي يقيم الدليل على صحة انكارنا لاستعمال « اللسان » و « القاموس » لفظ « الشد » في التعبير عن معنى النكنكة . ولم يكن همنا – طبعا – ان ننكنك ابن منظور او الفيروزابادي ، بل ان نثبت ان القلب – في هذا المضاعف ذي الاصل الثنائي ، على الاقل – يقلب معنى الفعل (في دائرة تضاد محددة تماما هي هنا دائرة الضم والتفريق) ويقلب ، مع المعنى ، وجهة العلاقة بين الفاعل والمفعول .

ولنتأمل الان في بعض من اصول هذا الجدول هي تلك التي قد يبدو في معانيها ما يلقي شبهة على ما سبق . في « نكص » و « نكل » يبدو الفاعل وكأنه هو الذي يبتعد عن مفعول يناديه . ولا نظن ان السبب في ذلك هو التعدية (١١) بحرف الجر ، عامة ، واللجوء الى حرف الجر هنا واجب في حالة

---

١٠ – انظر الملحق الثاني هنا .

١١ – في تعدية غير المتعدي انظر : الزمخشري : **المفصل في علم العربية** ص ٢٥٧ – ٢٥٨ – بيروت ل.ت.

« نكص » (اذ لا تقول «نكصه») وغير واجب في حالة «نكل» (اذ تقول «نكله» و «نكل عنه»)، وتختلف وجهة الفعل بين الحالين) . فلو كان وقوع الفعل على الفاعل يحصل ، ضرورة ، من التعدية بحرف الجر لما امكن القول : «بصقت على الارض» وايصال البصقة الى مستقرها ، اي الى الارض . . والحقيقة ان اختيار حرف معين لتعدية فعل معين يتبع ، اصلا ، وجهة الفعل المنبثقة من معناه . ولا يصح العكس ، اي ان حرف الجر ليس هو الذي يحدد – اصلا – وجهة الفعل . لذا كان لنا ان نقول ان وقوع الفعل على الفاعل في « نكص عن » و « نكل عن » نابع من « نكص » و « نكل » لا من « عن » . أي ان الفاعل هنا يبعد نفسه ويخرجها عن سويتها وموضعها ، فتظهر ، بالابعاد المذكور ، الوشيجة بين هذين الفعلين وسائر الكوكبة مثل « نكث » و « نكش » و « نكز » ، الخ . .

الاخراج عن السوية ؟ هذا يلفتنا مجددا الى « نكص » ، وهي الفعل الوحيد ، في الكوكبة ، الذي يحتاج احتياجا مطلقا الى حرف الجر لتعديته (اذ قد تتعدى « نكل » بلا واسطة .) لماذا كانت « نكص » مقيدة بمعنى الرجوع عن **الخير** (وان لم يصل التقييد الى درجة التخصيص) ؟ ذلك ان **الخير هو السوية** ، وان « نكص » ، بسبب من انخراطها في كوكبة « ن ك ? » لا بد ان تفيد ابعاد شخص أو شيء ما عن سويته ، **شان زميلاتها جميعا** .

ولم لم يكن ثمة فعل من « ك ن د » ، (وهي من اصول الجدول الاول) ؟ ذلك ان الكنود (بضم الكاف) هي « الارض لا تنبت شيئا » ، وهذا ليس فعلا بل هو حالة قائمة في **باطن** الارض ، وفعل الرغبة هو ان تنبت الارض الكلأ . لذا لم يكن من الكنود فعل .

ولم لم يكن من « ك ن ه » الا فعل رباعي جرت تعديته بالهمزة هو اكنه ؟ ذلك ان الكنه هو جوهر الشيء قابع عي مخبأه لا يفعل شيئا ولا تبدر منه حركة . فما يكنه (بضم الياء وكسر النون) ليس صاحب الكنه لتقول كنه . اذ ان شيمة هذا ان يخفي كنهه عن العين . وفاعل « اكنه » خارجي تماما ، مختلف بهذا عن فاعل « كنز » الذي هو صاحب الكنز وعن فاعل « كنف » الذي هو صاحب الابل والغنم . ولو كان فعل « كنه » موجودا لكان معناه « حاز كنها » لا « كشف كنه سواه » . فأفعال كوكبة « ك ن ن » تستر مفعولاتها وتضمها – ولو « غمتها » او « كنظتها » احيانا – وتترك لسواها (من كوكبة « ن ك ك » مثلا) كشف المستور ونقض المضموم . لذلك اضطر الفاعل ان يدخل على « الكنه » متوكئا على همزة . .

الكف والحوت

حصلنا حتى الان على نتيجتين :

١ – انتقليب الثلاثي السالم (نحو «ك ل م») يهدينا ، في احيان كثيرة ، الى ستة اصول تشترك في معنى عام معين . وهذا امر كنا نعرفه منذ ابن جني ، بل منذ اشياخه !

٢ – ان ابدال لام الثنائي (المسمى ثلاثيا مضاعفا) يقودنا الى اصول تشترك، هي ايضا، في معنى عام معين . وهذا أمر دلنا عليه الشدياق الذي جعل منه قاعدة مطردة في تكثير مفردات اللغة .

لم اذاً تجشمنا هذا العناء كله ولم نكتف بتسطير اعلان يحث القارىء على مطالعة بضع صفحات من « الخصائص » ومثلها من « سر الليال » ؟ . . . على ان الحق الذي لنفس

المرء عليه يجيز لنا التصريح بنتيجة ضئيلة الشأن ـ حتى الان ـ وصلنا اليها بعنائنا :

٣ ـ ان قلب « ك ن ن » الى « ن ك ك » يغير وجهة الفعل .

نقول « كـن » و « نـك » ولا نقول « قـد » و « دق » او « رف » و « فر » الخ .. لاننا لا نسيغ التعميم تحكما .. لنعترف اذآ ان كنزنا لا يضم حتى الان ، من المعجم كله، الا لفظتين . ثم اننا ، على أي حال ، قد نذرنا الوفاء لاحرف « كلمن » ، فلـن نحيد عنها الان .

ونحن نزعم ان قلب وجهة الفعل ، بقلـب هذا الثنائي ، ليس نتيجة محتومة للقلب على اطلاقه . انما هو نتيجة لقلب هذا الثنـائي بعينه ، المؤلف من كاف ونون . فلا نقتصر على اطراح التعميم التحكمي ، في هذا الصدد ، بل نحن لا نطمح الى التعميم ولا نقره . خلاصة رأينا اذآ ان تقديم الكاف بعينها علـى النون بعينهايتجه بالفعل من الخارج الى الداخل وان العكس بالعكس . ما هي حجتنا ؟

يقول الشدياق : « وقد وجدت في كتـاب يسمى « رسائل الاعجاز » اشتقاقا لحروف الهجاء بحسب ما اقتضاه فهم المفسر فقال : « (...) الكاف : المصلح اللامور (...) النون : الدواة والحوت » ! (١٢) وثمة ما يدعو الى الظن ان نسبة معنى الدواة الـى النـون فرضه الاجتهاد في تفسير الحروف القرآنية المقطعة التي تسمى فواتح السور : « نون . والقلم ومـا يسطرون » . فقـر راي بعض المفسرين على ان النون هي الدواة لمجاورتها القلم ! اما معنى الحوت فهو اقدم مـن هذا بكثير . ذاك ما يتبدى من مطالعة مادة «نون» في « لسان العرب » (وكلا المعنيين مثبتان فيه) ومن الالمام بالجدل المتطاول حول معاني فواتح السور . (١٣)

اما الكاف فان « اصلاحها للامور » مجـاز مأخوذ ، بلا ريب ، من معنى آخر . ويـرى بطرس البستاني ، في « قطر المحيط » انها انما سميت كافا لشبهها بالكف في الهجاءالفينيقي! وهو راي لا يجافي « اصلاح الامور » ولا نرى ما يمنع من الاخذ به . بل لعله يفسر ـ على غير ميعاد ـ استعمال الكاف للتشبيه ! (١٤)

نحن اذا امام حوت وكف ، اي امام بطـن وحركة . بطن يحتوي ويخفي وحركة او قوة تدفع وتشد ، تجمع وتبعثر ..

وحين يجهـد العلايلي فـي حصر معاني الحروف ، لا يلجأ الى اسطورتنا السفيهة هذه ، بل يوظف في ذلك معايشته للمعـاجم

١٢ ـ **الشدياق (احمد فارس) : الجاسوس على القاموس .** ص ٤١ قسطنطينية ١٢٩٩هـ .

١٣ ـ **ابن منظور** م م. المجلد الاول ـ مقدمة المؤلف . ص ١٠ ـ ١٢ .

الطبرسي (الفضل بن الحسن) : مجمع البيان في تفسير القرآن ـ الجـزء الاول ـ ص ٢٢ ـ ٢٤ ـ بيروت ١٣٧٩ هـ . **BLACHERE (Régis)** : «**Introduction au Coran**» pp. 144-149, Paris 1947.

وابن منظور والطبرسي متشيعان يميلان الى المعاني الباطنة . اما بلاشير فيقدم لائحة بالاجتهادات المختلفة . ولا يقطع أي منهم برأي . ونرى ، من جهتنا ، اللجوء الى« المجاز الصوتي » في تفسير فواتح السور . وهو ما سيأتي شرحه .

١٤ ـ لسنا نخلط ، كما قد يتوهم القارىء ، بين صورة الحرف في الخط وصورته في النطق . فقد صورت الكاف الفينيقية على مثال الكف وسميت ايضا « كف » ومعنى هذه اللفظة واحد في الفينيقية وفي العربية .

ومعاناته في تقصي مفردات اللغة ومعانيها.. لكننا نذهل حين نرى حصيلة جهده لا تخرج عن فحوى الاسطورة:

« الكاف يدل على الشيء ينتج عن الشيء في احتكاك (...) النون يدل على البطون في الشيء، او على تمكن المعنى تمكنا تظهر اعراضه. » (١٥)

ونحن نرى ان صورة « كن » هي صورة شيء (هو النون اي الفاعل) يشد شيئا من الخارج (وهذا كله هو الكاف او الفعل او المفعول المطلق، وهو صنو الفعل) ليقبله في جوفه. حتى لنكاد نعبر عن « كن » بالقول: « الى الجوف شدا » (او جرا شرط ان يدير الجار وجهه للجرور اي ان يجره اليه).. بل نكاد نعرب حرفي كن الاصليين اعرابا يجافي قواعد الاعراب: الكاف مفعول مطلق مجرور بالفاعل الى الداخل! النون: فاعل مجوف مضموم الاخر على المفعول! والجملة فعل ماض – مضى بعد ان تم بناؤه – مبني من الخارج الى الداخل!...

اما « نك » فتظل النون فيها فاعلا وتظل الكاف مفعولا مطلقا. لكن « صورتها » و « اعرابها » ينقلبان. وصورتها هي « وخزا الى الخارج» واعرابها هو: النون: فاعل مجوف يعالج مفعولا، خارجه، باطراف اسنانه! الكاف: مفعول مطلق يشعثه الفاعل. والجملة فعل ماض – مضى بد ان اثخن في مفعوله – مبني من الداخل الى الخارج!..

الحروف الفياصل

وما دام القارىء قد خالجه الريب في عقلنا، على اي حال، فلم يبق عندنا كبير شيء نخسره.. لذا نتابع.

زعمنا ان وجهة الثنائي الذي اخترناه تنقلب بقلبه لان النون بطن ولان الكاف حركة. ويؤول ذلك بنا الى امرين:

١ – ان لكل حرف معنى او – في الاصح – قيمة او اعتبارا تعبيريين.

٢ – ان نسق توالي الاحرف في الاصول يرسم نسق توالي الاعتبارات التعبيرية التي تبني، حرفا فحرفا، معنى الاصل.

وقد اسندنا راينا – من بعد تحليلنا المعنوي لـ « ك ن ن » و « ن ك ك » – الى تأويل العلايلي لدلالتي الكاف والنون. اي ان حجتنا هي، في نهاية الامر تذرع بالشخص – الحجة: « قال المعلم! » (١٦).. واسوأ من هذا ان شيخنا قد ينكر علينا ان نقوّله ما قوّلناه. فنكون قد لجأنا الى عمامة تأنف من كننا، ولا قبل لنا باحتمال نكنكة من صاحبها ولو يسيرة.

غير ان كنانتنا لا يزال فيها سهم. لن نفتح المعجم على كل كلمة فيها كاف او نون او كلاهما لنحقق فيها معنى الحركة او معنى البطون او معنى التحرك من البطن او اليه. ثمة ما هو اسهل.. فبين يدينا جدولان فيهما نيف وعشرون اصلا. وقد حصلت لنا بالحاق متحولات عدة بثابتين. اما الثابتان فهما الكاف والنون مرة والنون والكاف مرة اخرى. واما

---

١٥ – انظر الملحق الثالث هنا.

١٦ – Magister dixit! عبارة كان جهابذة القرون الوسطى اللاتينية يقولونها حين يروون عن ارسطو، وكانت تغني عن الدليل.

المتحولات فهي من سائر حروف الهجاء . ونسأل : هل اضاف كل متحول الى الثابتين معناه الذي يعينه له العلايلي ؟ ان كان الامر كذلك ربحنا ورضي عنا الشيخ .

ولا شك ان التذرع بالشخص ـ الحجة باق في هذه التجربة . غير انه امسى الان اقل وطأة مما كان عليه في تجربتنا مع « كن » و« نك ». فنحن نختار هنا عينة « عشوائية » من المفردات (« عشوائية » بمعنى ان العلايلي لم يبن جدوله عليها بالذات) ونختبر بها معظم جدول العلايلي (لا حرفين منه نقط) .. فوق ذلك ، تتوطد اركان خطتنا هذه بكون المتحولات التي نأخذها من العلايلي تسقط اولا على معنى ثابت واحد ، ثم على معنى ثابت آخر ـ وقد سبق تحديدهما ـ فيسهل عزل ما تضيفه هذه المتحولات على كل من المعنيين المذكورين . بهذه المثابة ، لا تعود عينتنا عشوائية على اطلاق العبارة .

وقد نفذنا هذا الاختبار واثبتنا ، هنا ، جدول العلايلي جدولا ثالثا . وبدت لنا المقارنة بين معاني الحروف المثبتة في هذا الجدول والمعاني التي انضافت باضافة الحروف نفسها الى اصول الجدولين السابقين مقارنة ناطقة. واليك امثلة :

الكنس ، وهو « كسح القمام عن وجه الارض » تحصل باضافة السين الى الكن . والسين عند العلايلي « يدل على السعة والبسطة من غير تخصيص » . اما الكن فهو ـ في ما رأينا ـ ضم وجمع. فيكون «الكنس» "جمعا عن منبسط » . .

كنع معناها « انقبض وانضم » . وفيها اضيفت العين الى كن . والعين في جدول العلايلي « يدل على الخلو الباطن، او على الخلو مطلقا » . فكأن الكنع انقباض الشيء او الشخص نحو داخله الاجوف .

الكنز هو الدفينة . والزاي « يدل على التقلع القوي » . فكأن الكنز هو ما تحفر الارض ـ على عجل ـ لدفنه او ـ بلهفة وقلق ـ لاخذه . ولا ننس استثارة « التنافس » التي يجعلها« اللسان » شيمة عامة للكنوز .

النكت هو « ان تضرب الارض بقضيب فيؤثر فيها » (وهو ما يليه من جدول ن ك ك) و « التاء » يدل على الاضطراب في الطبيعة او الملابس للطبيعة في غير ما يكون شديدا » . وهذا لا يحتاج الى اجتهاد .

النكح : « الوطء » . والحاء « يدل على التماسك البالغ وبالاخص في الخفيات ، ويدل على المائية . » وهذا أبعد ما يكون عن الحاجة الى اجتهاد .

النكش : اخراج « الجيئة والطين » من الركية . والشين « يدل على التفشي بغير نظام » . الخ ، الخ . .

ويستطيع القارىء ان يكمل مطمئنا الى اننا ـ وان كنا في حيرة ، نجدها مشروعة للغاية، في امر لفظتين او ثلاث ـ سوف نعود ، بعد قليل ، الى بيان الوجه الذي نراه لالفاظ اخر . (١٧)

١٧ ـ تبقى مشكلة « نك » . لم لم يرد هذا الفعل بصيغة الثلاثي المضاعف ؟ حين يعز المضاعف ، يوصينا الشدياق باللجوء الى الاجوف ، أي الى ثلاثي عينه الف ساكنة (« **سر الليال ...** » م م ، ص ٢٥) . والاجوف من « نك » فعل نغضي عن ذكره استحياء ! لكن مجيء الكاف بعد النون فيه ووجهته متوافقان تماما ، بتلاؤمهما ، مع ما ذكرناه .. على مثال الصورة الفقهية المأثورة : « الميل في المكحلة » !

في فضل اللعب على الجد

جهدنا في ابقاء مبدأ اولوية النظام على عناصره ماثلا خلال الصفحات السابقة. فقد انطلقنا من المركب الى البسيط .. من ثلاثي سالم، هو عماد اللغة، او على الاصح، عماد المعجم، الى ثنائي وجدناه مع الشدياق، في اصل الثلاثي المضاعف، الى مقطع احادي لا يعدو ان يكون حرفا محركا، اي ان قوامه هو صويت (١٨) الحرف الذي لا يلفظ وحده .. فمن البحث عن المعنى المشترك بين مقاليب الثلاثي السالم (وهي تشترك في احرفها الثلاثة، فيكون المعنى المشترك ناجما من هذا الاشتراك ويكون تخصص كل منها بمعنى ضمن المعنى المشترك ناجما من تغير نسق الاحرف) .. الى ابدال لام المضاعف (وهو يحصر المعنى المشترك بين الاصول المتحصلة منه، في الحرفين الاولين، اللذين يحملان «وحدهما»، في المضاعف، هذا المعنى بعينه) .. الى الحروف المفردة التي ابدلنا بها لام المضاعف ورأينا انها تضيف الى الثنائي معينيات محددة، يعثر عليها، بشهادة العلايلي، في سائر ما تدخل فيه هذه الحروف من مفردات. في هذا الاختزال المتدرج، كان العنصر يتخذ معناه دائما من مواجهته نظمة العناصر في دائرته. فالمعنى المشترك في كل واحد من الثلاثية السالمة لا يحصر الا بعد مواجهة هذا الثلاثي بزملائه الخمسة. ومعنى الثنائي – سويا ثم مقلوبا – لا يحصر الا بعد مواجهته بجدولي الثلاثية المتحصلة من ابدال لامه. واثر نسق الحرفين في معنى الثنائي لا يحصر الا بعد مقابلة الجدولين احدهما بالاخر. ومعنى المقطع المفرد لا يحصر الا بعد مقابلة عدد كاف من اضرابه بثنائي ثابت تم حصر معناه سلفا، ثم بمعناه المفترض (في جدول العلايلي) المستخرج من تحليل عدد نخاله ضخما من المفردات.

هذه الخطة القائمة على **مقابلة** العناصر (Opposition) ضمن دوائر محددة متراكبة في نظمة اللغة، لا تخرج قطعا عن نهج فردينان دوسوسور. (١٩)

على اننا خرجنا على سوسور تماما في **غرض** هذا المقال **ودعواه** وان كنا لم نغادر **خطته**.

ولا بد لنا الان، قبل الدخول في المناقشة، من الاعتراف بأننا تركنا وراءنا مشكلات عديدة وامورا يعوزها نصابها.

١ – من ذلك اننا، في لجوئنا الى القلب والابدال، بدونا وكاننا نرى فيهما وسيلة مطردة اعتمدت فعلا – نكاد نقول عمدا – في تكثير اللغة. والحق اننا لا نميل الى الاخذ بهذا الراي، ونرى نفسنا، على اي حال، في غنى عنه. فنحن **لا** نحتاج الى القلب والابدال الا بصفتهما اداة بعدية a posteriori للتحليل. وغايتنا من اعمال **هذه الاداة هي** اثبات الصلة

---

١٨ – «صويت» من مصطلح ابن جني (الخصائص) مم. المجلد الاول – ص ٥٧) نضعه هنا بإزاء Phonème الفرنسية. ونرى تعميم صيغة التصغير على الوحدات الصغرى المشاكلة. فنقول معينى لـ Sémantème وشكيل لـ morphème وسطير لـ mythème وذويق لـ gustème الخ ..

١٩ – SAUSSURE (Ferdinand de) : «Cours de linguistique Générale» Paris 1965.
وشواهدنا التالية من سوسور مأخوذة كلها من هذا الكتاب.

بين السلسلة الصوتية والسلسلة المعنويةاللتين يؤلف تجانسهما المفردة العربية . وسواء عندنا ان تكون لفظة « ملك » قد برزت الى الوجود ، واعينها الثلاث مثبتة على « امهـا » المفترضة « كلم » او ان تكون « ملك » لم تفطن الى وجود امها ابدا . فما يهمنا هو ان الاحرف المشتركة حفظت معنى مشتركا بين اللفظتين . وان يكون ابدال حرف بحرف من اللفظة محدثا في معناها تغييرا لا تفسره الصدفة .

والراهن ان استغناءنا عن اعتبار القلب والابدال قاعدتين عاملتين في تكثير المفردات كفانا شر الدخول في تيه اين منه تيه موسى . .

وذلك اولا بسبب احتمالات التعارض بين القلب والابدال . وثانيا بسبب عصيان احتمالات الابدال الذي اعملناه على الحصر . فما الذي يثبت اننا نحصل على « كَنَس » بوقوع الابدال على اللام من « كَن » وليس بقلب « سكن » ؟ ! وما الذي يفرض ان يقع الابدال على لام « كن » وليس على عينها او فائها ؟ ! وما الذي يمنع من العودة الى الابدال مجددا في قطيع الاصول المتحصل من وقوع الابدال على أحرف اي اصل ، تباعا ؟ (٢٠)

نعلم ان ثمة ضوابط للابدال ، بمعناه الاصلي عند القدماء من علماء اللغة . فهو لا

---

٢٠ ـ تسبب الشعور (الغامض شيئا ما) بهذه المشكلة في جدل عنيف بين الشدياق وابراهيم اليازجي . ونصوص المناقشة التي دارت على صفحات « الجنان » و « الجوائب » مثبتة بتمامها في كتاب : **شبلي (الاب انطونيوس) : « الشدياق واليازجي : مناقشة علمية ادبية سنة ١٨٧١ »** ـ بيروت ١٩٥٠ . وكان الشدياق قد جمع ردوده على اليازجي في كتاب سماه : « **سلوان الشجي في الرد على ابراهيم اليازجي** » . وهو مثبت كله في كتاب شبلي السابق الذكر .

يقول اليازجي منتقدا « سر الليال » : « ولقد خطر لي الان ما لو خطر له لما باشر في تأليف هذا الكتاب (...) قال في اول كتابه « الساق على الساق » (...) « ومنه إيراد الفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى من حرف واحد من حروف المعجم نحو الغطش والغمش والبهز والبحز والبغز والحفز تنبيها على ان كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من اسرار اللغة العربية التي قل من تنبه لها . وقد وضعت لهذا كتابا مخصوصا سميته « منتهى العجب في خصائص لغة العرب . (...) » والحاصل انه عول هنا في تناسب معاني الالفاظ على الحرف الاخير منها دون اعتبار ما قبله (...) والذي جزم به في سر الليال ان تناسب معاني الالفاظ انما هو منوط بالحرفين الاولين منها دون اعتبار ما بعدهما .

« فاذا تفرست في المذهبين وتدبرت القولين لم تجد بينهما نسبة اقرب مما بين النقيض ونقيضه (...) على ان ما حتم به مردود في الموضعين جميعا (...) وانما قد يتفق تناسب بعض المواد في احد الرأيين ، والحكم بالاطراد لا يكون الا من باب العبث » .

(**شبلي** م.م. ص ١١٢ ـ ١١٤) .

ولم يجد الشدياق ما يرد به هذا النقد المفحم سوى شتم اليازجي « اللئيم » والتراجع عن مبدأ « الساق على الساق » و « منتهى العجب » ، قائلا ان ذلك كان قوله « منذ خمس عشرة سنة » محاولا انقاذ « سر الليال » (« سلوان الشجي » في : **شبلي** م م ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .)

وسبب هذا الخور الشدياقي واضح ، وهو الغفلة عن الاحتمال الثالث : اي عن امكان مثول معنى اللفظة في احرفها جميعا وفي نسقها ايضا . لماذا فات هذا الاحتمال الشدياق ؟ لانه يهدم دفعة واحدة مبدأ توليد الاصول بأعمال القلب والابدال .

يتناول جميع الحروف ولا يجيز ان يبدل الحرف الواحد الا بأحرف معينة ، في حالات معينة . لكن هذا الابدال المقيد لا يولد معاني جديدة ، بل يقوّم النطق ببعض الالفاظ او يولد ، حسب عبارة المعجميين ، « لغات » في اللفظة الواحدة (٢١) .. ونحن هنا قد اطلقناه من قيوده لاقتناعنا بأن الالفاظ في جدولينا ، لم تنتج عن إعمال قاعدته، بل هي مجرد اصول موجودة في المعاجم يختلف الواحد منها بلامه عن سائر الفاظ الجدول ..

٢ ــ من ذلك ايضا اننا ضربنا صفحا عن حركة المقطع البسيط في تقديرنا لقيمته المعنوية ضمن السلسلة . فلم نأبه للاختلاف بين ان يكون الحرف مفتوحا او مضموما او مكسورا . ولم نتعرض للساكن . واعاننا على ذلك اننا قصرنا تحليلنا على الاصول وحروفها المفتوحة ، في الثلاثي . لكن كون الاصل اصلا من حيث البنية لا يوجب ان يكون اصلا من حيث قِدمه . فما الدليل على ان « عوى » قد سبقت « عواء » الى العالم ، أي على ان العربي حين اراد ان يحاكي صوت الذئب فتح العين ولم يضمها ؟ هذا الاغفال الذي الجأتنا اليه ضرورة التبسيط ، لا يعني ، في عرفنا ، ان الحركة اللاحقة بالحرف ــ ناهيك بأوزان الاشتقاق ! ــ لا تؤثر في معنى المقطع و ، بالتالي ، في اعتبار الصويت المعنوي . على اننا افترضنا ان هذا التأثير لا يصل الى تبديل الاعتبار المذكور جوهرا . وقبلنا الافتراض نفسه ، الى ان يثبت العكس ، في شأن تراوح بعض الحروف بين الجهر والهمس وبين التفخيم والترخيم ، الخ ..

٣ ــ من ذلك ايضا ما هو ادهى . فان للعربية قوانين صوتية دقيقة . ابسطها ان ثمة احرفا لا تجاور احرفا اخرى الا اذا تقدمتها واحرفا لا تجاور احرفا اخرى الا متأخرة عنها، واحرفا لا تجاور احرفا بعينها على الاطلاق (كل ذلك في الاصول .) (٢١) ثم ان ثمة احرفا يكره التقاؤها فيندر . لنبحث في جدولنا الثاني عن « نكج » .. عبثا نبحث !. فقل ان يرد اصل عربي تلتقي فيه كاف وجيم (٢٢) . هذا رغم ان « نكج » كان من شأنها ، لو وجدت ، ان تعني : «زحزح جبلا»! لا يكفي اذن ان يكون للمقاطع اعتبارات معنوية نرصفها ، على نسق معين ، في السلسلة الصوتية ، لننال معنى معينا . علينا ان نحاذر تعثر ثاء بزاي او سين بضاد الخ .. واذا شاء نكد الطالع ان تقع الكاف على جيم ، آثرت اللغة ابتكار حيلة اخرى تزحزح بها الجبل .. هذه المشكلة تقع عند تقاطع النظام الصويتي في اللغة (اي نظام العلاقات بين صويتات اللغة جميعا) والنظام الصويتي ــ المعنوي في بناء المفردات (أي تلابس السلسلتين الصوتية والمعنوية لانتاج المفردة بصفتها صوتا مجسدا للمعنى لا ينفصل عنه الا بمقتضى التحليل) .

والمشكلات الآنفة الذكر ــ وسواها ــ ضخمة ، يستدعي كل منها تمحيصا عويصا

---

٢١ ــ انظر في الابدال مقالة ممتازة « **لبطرس البستاني** » (الثاني) او الثالث اذا عددنا المطران) في: «**دائرة المعارف**»م‌م. المجلد الثاني . مادة « ابدال » .

٢١ ــ **ابن منظور** م‌م. مقدمة المؤلف . ص ١٤ .

٢٢ ــ **ابن جني** : « **الخصائص** » م‌م ــ المجلد الاول : ص ٥٤

على حدة . على اننا لا نظن ـ وقد نكون على خطأ ـ انها تطيح بما حاولنا بناءه . او اننا لا نعرف ـ على وجه الدقة ـ كيف تطيح به .

رقاص الساعة السويسرية

يؤسس فرديناند دو سوسور « علامياته » (Sémiologie) على مبداين : مبدأ « تحكمية العلامة » ومبدأ « خطية الدال » (٢٣) . ورغم ادراكنا لخطورة تعكير موردين نهل منهما ، بصور مختلفة ، بعد سوسور ، عالم شاسع من المعارف ، لا نرى مهربا من القول اننا لم نجد لهما نفعا في بناء نظرية للعربية .

ومعنى « تحكمية العلامة » ان الصلة بين الدال والمدلول (بين اللفظة والتصور) لا باعث لها . بحيث يمكن ، مبدئيا ، للدلالة على تصور ما ، استبدال اية لفظة اخرى باللفظة التي تتيح ، بالفعل ، هذه الدلالة . على ان الاستبدال المذكور ليس رهنا بارادة المتكلم . فما ان يتقرر دال لمداول حتى تفقد كل سلطة على العلامة الجديدة الا سلطة النظام اللغوي الذي تنخرط فيه وصيرورته البطيئة . فالتحكم اذاً هو في تعيين ـ او بالاحرى تعين ـ الدال للمدلول اصلا .

ويطنب سوسور في اهمية النتائج المترتبة على هذا المبدأ ، قائلا انها « لا تحصر » (٢٤) . فهو يجعلها عاملا لثبات اللغة (ما دامت اللفظة بلا مبرر ، فلامبرر لاستبدال سواهابها!) (٢٥)، وعاملا للتحول في اللغة (ما دامت اللفظة بلا

٢٣ ـ **سوسور مم.** ص ١٠٠ ـ ١٠٢ . ونتبع العلايلي في « المرجع » فنضع « التحكمية » ، لا « الاعتباطية » ولا « الاتفاقية » ولا « الاصطلاحية ») بازاء Arbitraire . واجدر ما في ذلك بالاشارة ان « الاصطلاح » الذي نجده عند اللغويين العرب (Convention) لا يصلح قطعا لاداء المعنى السوسوري . فالاصطلاحيون العرب يحرصون دائما على تأكيد ان « المصطلحين » الذين « وضعوا » الالفاظ قد اختاروا « الاصلح » ، ولا يعلون الاشادة بحكمة هؤلاء . فيغيب بذلك من الاصطلاح معنى « انتفاء الباعث » السوسوري (immotivation) من جهة اخرى آثرنا « علامة » بازاء Signe على اشارة ومفردة وكلمة .. ودافعنا ان « الكلمة » العربية قد تعني خطبة ضافية ! وان « المفردة » محصورة في حيز اللغة فيصعب اخراجها الى سائر نظم « العلاميات » (Semiologie) وان الاشارة قد تعني اتجاه الحركة الى شيء ، على نحو لا قاعدة له ولا ثبات . وقد ابقينا « دال » لـ Signifiant) و « مدلول » لـ Signifié . ونرى ان يخصص الدل (اي المصدر الفعلي) بمعنى الفعل في Signitication وان تخصص الدلالة بمعنى الاسم فيها . وقد كنا نود (لمجانسة اللفظ مع هذا كله) ان نقول لـ Signe « دليلة » .. لولا شمشون .

يبقى استثناء مما ورد اعلاه عن الفرق بين التحكمية السوسورية والاصطلاح العربي . فابن سيده يقول : « (...) ان اللغة اضطرارية وان كانت موضوعات الفاظها اختيارية . فان الواضع الاول المسمي للاقل جزءا وللاكثر كلا (...) لو قلب هذه التسمية فسمى الجزء كلا والكل جزءا (...) لم يخل بموضوع ولا أوحش اسماعنا من مسموع . ونحن مع ذلك لا نجد بدا من تسميةجميع الاشياء لتحتاز باسمائها وينماز بعضها عن بعض بأجراسها واصدائها (...) »

ابن سيده : المخصص ـ المجلد الاول . ص ٣ ـ بولاق١٣١٦ هـ. وهذه « الاختيارية » مماثلة للتحكمية .. لولا انها، ونقيضتها « الاضطرارية » ، تميلان بنا نحو مصطلح المتكلمين .

٢٤ ـ **سوسور** مم . ص ١٠٠ .

٢٥ ـ **سوسور** مم . ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

مبرر ، فلا مانع من تحولها تحت وطأة كل العوامل التي تطال اصوات اللغة او معانيها !) (٢٦) . اي ان التحكمية باعث على الديمومة وعلى الصيرورة معا .. وحين يميز سوسور بين « التحكمية المطلقة » و «التحكمية النسبية» (٢٧) في علامات اللغة، يضرب على الثانية مثال الالفاظ المشتقة على قياس («ضرب» تحكمية ، لكن اسم الفاعل منها لا يمكن ان يكون الا « ضارب » ، فالتحكمية في هذا نسبية لانها مقيدة بقياس الاشتقاق) او مثال اسماء العدد المركبة («تسعة» و «عشرة» تحكميان ، لكن تسعة عشر لا يمكن ان يكون لها اسم آخر لتقيد اسمها بسائر الاسماء في نظام العدد العشري) الخ .. فبينما تؤدي التحولات الصوتية الى طمس ايظاف اللغة في مراحله القديمة ، يحفظ القياس مقدارا من الشفافية لقواعد هذا الايظاف . وليس هذا الصراع ، في حقيقة امره ، الا مجابهة مستمرة بين التحكمية المطلقة والتحكمية النسبية (٢٨) . في هذا كله يبقى سوسور بعيدا عن تقييد التحكمية بأثر ما للمدلول في داله . وتبقى تحولات الدال خاضعة لاعتبارات صوتية بحتة، شأن وضعه، في الاصل . وحين يفطن سوسور الى وجود « حكايات الصوت » (حسب اصطلاح الشدياق) وما يشاكلها من ألفاظ الاستصراخ والزجر والتعجب الخ .. ينحو الى استصغار مكانتها في اللغة والى الشك « جزئيا » في « اصلها الرمزي » . (٢٩)

ولاعتبار التحكمية عينه يضع سوسور فاصلا بين العلامات اللغوية وبين الرموز (ميزان العدالة ، مثلا) . ففي الرمز دائما « اثر من صلة طبيعية بين الدال والمدلول » ... (٣٠) .

بقي ان نسأل عما اسند اليه سوسور تحكميته هذه . حجته يتيمة : وهي « الفروق بين اللغات ووجود اللغات المختلفة نفسه »(٣١) . وقد كان صعبا حقا على عالم له بصيرة سوسور ان يعثر على حجة اكثر تهافتا من هذه .

اطلب من سويدي ومن هندي ان **يحاكيا** لك نباح الكلب . وستكون محظوظا اذا حصلت على صوتين متقاربين . اطلب منهما الان ان **يرسما** لك بصوتيهما او — ان كانا من عباقرة العزف — بأنغام القيثارة ، صورة النار . وقد تسمع انت الاستعار والتشظي في اللحنين ، لكنك تكون قد سمعت لحنين لا شبه بينهما . من السهل الرد بأن واحدا من الاثنين اتبع نموذجا سويديا في محاكاة النباح ، وان الاخر رسم نموذجا مستقى من اصول التلحين عند الهنود . لكن هذا الرد اسهل مما ينبغي ! فقد حاول الاثنان **المحاكاة** ولم يكن بين ما صنعاه وبين تصور

٢٦ — **سوسور** م م . ص ١١٠ — ١١١ .

٢٧ — **سوسور** م م. ص ١٨٠ — ١٨٤ . ويقول سوسور ان التحكمية النسبية تنشأ عن نجاح « الفكر » في الحد من « المبدأ اللاعقلاني ، مبدأ تحكمية العلامة » . وذلك بتقعيد اللغة . الا ان « الحد من التحكمية » لا يصل ، في اي حال ، عنده الى العلاقة بين الدال والمدلول ، في اصول اللغة .

٢٨ — **سوسور** م م . ص ١٨١ — ١٨٣ .

٢٩ — **سوسور** م م . ص ١٠١ — ١٠٢ .

٣٠ — **سوسور** م م . ص ١٠١ .

٣١ — **سوسور** م م . ص ١٠٠ .

النار او النباح علاقة تحكمية . كان بين الصعيدين ، صعيد التصور وصعيد التعبير، **توهم شبه .**

واللغة لا تعبر عن الاصوات وحدها ، بالطبع . بل ان اقدم الالفاظ ـ حسب الشدياق ـ قد يكون « حكاية صوت او حكاية صفة » . واذا كانت الاصوات مثات ، فالصفات ـ من الحسي الى المعنوي ، ومن البسيط الى المركب ـ الوف . وهناك صفات من الافعال وافعال من الصفات وصفات من اسماء الاشياء واسماء من صفات الاشياء ... وهذا كله يطلب الى اللغة ان تعبر عنه بـ « دالات خطية » اي بالصوت .. واذا كان لشعب عطشان ان يدخل في اسم الغيم صوت الغرغرة ، فما الذي يمنع شعبا مرويا ، حتى الهلع من السيل ، ان يدخل فيه صوتا يفيد ، بتقريب الشفتين ، بداية العتمة (٣٢) ؟ ثم يطلب سوسور في « تحكمية » العلامة علة لاختلاف اللغات ! علينا الاقرار بأن سوسور انسان ضخم العقل ، « صناعي » : لا قلب ولا مخيلة !

« مهلا بحق زفس » !

في المقطع الذي يلي حديث « اختلاف اللغات » ، يبحث سوسور عن ملجأ جديد في « اجماع اهل المدينة » ...! « ان احدا لا يشكك في مبدأ تحكمية العلامة . » (٣٣) .. يشبه هذا قول الممثل ماسترورياني في «طلاق على الطريقة الايطالية» : « انني كاثوليكي مثل جميع الناس » !.. لكن الناس ، منذ سقراط ـ على اقرب تقدير ـ لم يكفوا عن الطعن في « تحكمية العلامة » :

« سقراط : مهلا هنا بحق زفس ! الم نتوافق مرارا على ان الاسماء التي احسن صنعها تكون على شبه الاشياء التي هي اسماؤها وانها صور الاشياء ؟ » (٣٤)

سقراط اذاً .. وبعده ـ وقبله على الارجح ! ـ جميع الكهنة والسحرة والرقاة

---

٣٢ ـ ~ين **لزكي الارسوزي** بملاحظات عديدة سقناها . وان كنا **لا** نوافقه على ذهابه من تحليل اللغة الى القبول بـ « بدئيتها » و « بدائيتها » اي بارجاع الالفاظ الى اصوات طبيعية وبكون العربية « نسيج وحدها » صنعتها « امة » بدأ ظهورها « على مسرح التاريخ مع ظهور الانسانية » . المهم الان اننا نقع عند الارسوزي على مثال جميل لما نحن بصدده : « والعلاقة بين الصوت والمعنى تشمل الحروف ايضا . فحرف (غ) مثلا يعبر عن معنى حدوثه في الفم وهو معنى الغيبوبة . « غاب ، غاص، غار ، الخ .. » .. على ان الارسوزي يغفل امرا فطن اليه الشدياق ، وهو معنى لفظة الغين : « الغين : الغيم والعطش » (« **الجاسوس** ... » مم . ص ٤١) . لا بد من عبقرية صحراوية لحشد هذا الشعر كله في حرف واحد منتصب بين نداوة السماء وجفاف الحلق . على ان معنى الغيبوبة ماثل فعلا في الفاظ ذات غين لم يذكر الارسوزي الا اقلها . وهو درجة من مدرج تقع فيه جميع حروف الحلق وتتمين به قيمها في المجاز الصوتي . انظر دلالاتها في جدول **العلايلي ـ الملحق الثالث هنا** . وانظر ادناه .

اما شواهد الارسوزي فهي من مقاله « **اللسان العربي** » المثبت في : « **المؤلفات الكاملة** » المجلد الرابع . ص ١١٨ ـ ١٢٥ . دمشق ١٩٧٤ .

٣٣ ـ **سوسور** مم . ص ١٠٠ .

٣٤ ـ **افلاطون** : كراتيل ٤٣٩ ـ أ . وفي « المحاورة » نفسها تحليل لدلالات بعض الحروف كالراء واللام ، عند اليونانيين ، لا يخرج ابدا عما نذهب اليه .

وكتاب التعاويذ .. وبعدهم ــ وقبلهم ــ ابــن جني (٣٥) والفارابي (٣٦) وابن عربي (٣٧) والشدياق.. وبعدهم روبنشتاين وسكف(٣٨) والعلايلي ... والسر في هذا الانفراد الكثيف عن « الاجماع » السوسوري المزعوم ان فــي الفكر الغربي والشرقي ، منذ قرون طويلة ، تيــــارا متشعب الموارد معاديا «للاسمانية» الارسطية التي ينتمي اليها سوسور ، هــو التيار الجدلي ، واهم منابعه افلاطون . وليس مهما ان يؤخذ بهذا الكلام الذي يبدو هراء في صيغته الماثلة . لكن من المهم تذكر بعض ما ومن عاصره سوسور: المناقشــة بين تارد ودوركهايم، دلاكروا وريبو ، بيرون وواطسون ، ميلاد علم نفس « الصورة » مـــع كوفكا وكوهلر .. واللائحة ناقصة ومتنافرة بلا ريب . فهــي تسقط برغسون وفرويد مثلا. وهي توحي بأن واطسون وكوهلر شيء واحد (٣٩) . لكن ثمة من قال ان التمييز بين اللغة والكلام عنــد

---

٣٥ ــ عند **ابن جني** تتخذ المجابهة بين « التوقيف » (أي القول بأن اللغة من صنع الله) **والاصطلاح** (أي القول بالتواضع، في اللغة ، على الاصلح) صورة الازمة الشخصية : « واعلم فيما بعد ، انني على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري . وذلك انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والارهاف والرقة، ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به امـام غلوة السحر (...) فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه وانها وحي .

«ثم اقول في ضد هذا : كما وقع لاصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر ان يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ــ وان بعد مداه عنا ــ من كان الطف منا اذهانا ، واسرع خواطر واجرا جنانا . فأقف بين تين الخلتين حسيرا، واكاثرهما فأنكفيء مكثورا . » .

ومدح اللغة في كتبها كثير ، لكنك قل ان تقع على هذه الغنائية . ثم ان القول بتغير الوظائف الحسية ، ناهيك بالعقلية ، عند المتأخرين عما كانت عليه عند المتقدمين وادراك ذلك من اللغة ، هما حصيلة حــدس خصب ، بلا ريب .

٣٦ ــ « (...) فان كانت فطر تلك الامة على اعتدال وكانت امة مائلة الى الذكاء والعلم طلبوا بفطرهم من غير ان يتعمدوا في تلك الالفاظ التي تجعل دالة على المعاني محاكاة المعاني (...) ونهضت انفسهم بفطرها لان تتحرى في تلك الالفاظ ان تنتظم بحسب انتظام المعاني على اكثر ما تتأتى لها في الالفاظ (...) » .

الفارابي (ابو نصر) « كتاب الحروف » حققه وقدم له وعلق عليه : محسن مهدي ــ ص ١٣٨ ــ ١٣٩ بيروت ١٩٧٠ . ويساوق الفارابي ما بين تبدل الاحرف في اللفظ وتعاقب الاعراض على المعنى ، فيتحصل من كلامه تعليل عام للاشتقاق والتثنية والجمع والتصغير والاعراب ، الخ .. ولما يدل عليه القلب والابدال .

٣٧ ــ كان الصوفيون اكثر المؤلفين عناية بدلالات الحروف . وبين رسائل ابن عربي ، رسالة في اسم الجلالة يصف فيها اللام الاولى بأنها « لام المعرفة » والثانية بأنها « لام الملك » والهاء بأنها « كناية عن غيب الذات المطلقة » (ونص الرسالة في « **رسائل ابن العربي الشيــخ الاكبر** ») وترقيم الصفحات مضطرب فــي طبعــة بيروت المصورة عن الطبعة العثمانية . وفي الرسائل بحث مستفيض في حروف اخرى .

٣٨ ــ **SCHAFF (Adam) : Introduction à la Semantique. pp, 185-187** Paris 1968.

٣٩ ــ توحي اللائحة نفسها بشيء اكثر خطرا : وهــو ان سوسور قد « تأثر » هذا او ذاك من معاصريه . والواقع اننا في غنى عن ان نفترض اطلاعا من سوسور على ما كتبه دركهايم او كوفكا . كل ما نفترضه هو اشتراكهم في مساق معرفي واحد . انظر نقدا لتفسير الاشتراك بالتأثر في : **FOUCAULT (Michel) : L'Archéologie du Savoir** pp. 166-169 - Paris 1969.

سوسور هو التمييز بين مجتمع دوركهايم ومجتمع تارد (٤٠) . واذا كانت العلاقة بين «النظام» السوسوري (قلما ترد كلمة «بنية» عند مؤسسي البنيانية) وعناصره تقاس ، دون تكلف ، على العلاقة بين الصورة وعناصرها ، في علم نفس الصورة ، فان العلاقة بين الدال والمدلول السوسوريين بقيت محض «ترابط» . اي انها لم تخرج عن ترسيمة المدرسة « الترابطية » او « الاسمانية » التي عقدت نظرية الصورة العزم على نقضها . فما الذي يحمل على رفض « الترابط » قاعدة لعلم النفس اليوم ويحمي صنو « الترابط » ، في الالسنيات العامة ، وهو « تحكمية العلامة » (٤١) ؟ هذا بينما يقع مقتل السوسورية في افتقارها الى نظرية متماسكة للمخيلة .

بقي مبدا سوسور الثاني ، وهو « خطية الدال » . ومفاده ان الدال ، بصفته سمعيا ، « ينبسط في الزمن وحده » . لذا فهو ذو امتداد ، وامتداده لا يقاس الا في بعد واحد : « انه خط » . وهذا المبدا بسيط ، على ما يقول سوسور نفسه ، الى حد « ان صياغته اهملت دائما » . (٤٢) ولنا قبل التسليم بهذا المبدا ، في صدد العربية ، شرطان :

١ — ان لا تعني وحدة البعد وحدة الوجهة، اي ان لا يمتنع تقليب الكلام لتحليله .

٢ — ان لا يردنا اعتبار الدال سمعيا الى تحكمية العلامة اي ان يبقى محتملا وهم الوحدة ، في العلامة ، بين الدال والمدلول .

ولسنا نعلم ، على وجه التحقيق ، ان كان هذا يعني اننا نقبل المبدا المذكور ام اننا نرفضه .. (٤٣)

مملكة الوهم

ليست الفاظ اللغة العربية اذن نياشين صفيرة معلقة على صدور المعاني . انها **صور** المدلولات ، بمعنى الكلمة القوي . ولا يعني هذا ، على ما راينا ، انها الصور الوحيدة المكنة ، ولا انها صور « طبيعية » . فالدال العربي ليس علامة المدلول بالمعنى الذي نرى فيه سيلان الانف علامة للرشح او الدخان علامة للنار او الصرخة الخام علامة للالم . بل ان الدال يستعير في ملابسته لمدلوله كل

٤٠ — LEPSCHY (G.C.) : La linguistipue Structuraleَp. 55 - Paris 1968.
والمؤلف ينقل رايا لدوروزفسكي .

٤١ — مال اميل بنفنيست ، منذ عام ١٩٣٩ ، الى اعتبار تحكمية العلامة مجرد « وسيلة يدافع بها اللغوي عن نفسه في مواجهة السؤال » الماورائي عن العلاقة بين الفكر والعالم . وامل ان يعود اللغوي يوما الى هذا السؤال وهو اوفر عدة . مذكور في LEVY-STRAUSS (Claude): Antiropologie Structurale p. 103 - Paris 1958. ولم نستطع الوقوف ، لسوء الحظ ، على مقالة بنفنست بنصها . على انه ، ان صح فهمنا لعبارته هذه ، يرى في « التحكمية » مجرد افتراض منهجي حصر الاسئلة التي تبيحها طاقة الوضع الراهن للنظر العلمي في اللغة .

٤٢ — سوسور م م . ص ١٠٣ .

٤٣ — ذلك ان هذا المبدا لا يترك في « دروس » سوسور — او فيما نشر منها — اثرا في وضوح الاثر الذي يتركه المبدا الاول. فلا يظهر كل ما يريد سوسور ترتيبه عليه . انظر : LEPSCHY Op.cit. p. 55-56.

اساليب البيان والبديع من التشبيه الى الكناية الى الاستعارة الى التورية الى الطباق الى الجناس الى تسمية الكل باسم الجزء او الجزء باسم الكل الخ .. وهو في هذه الحالات ، جميعا ، **يتوهم** استحضار المدلول الى السلسلة الصوتية . فاللغة نظام الوهم او مملكته ، وليست انبثاقا مباشرا من الطبيعة المادية ولا من طبيعة الفريزة . ولما كانت اساليب الوهم ونظمه لا تحصر فقد امكن مبدئيا (مبدئيا لاننا نقصر كلامنا هنا على العربية) ان تكثر اللغات وامكن لعلاماتها ان تثبت وان تتحول . فالتوهم وحده — لا تحكمية سوسور ولا طبيعة الارسوزي — يكفل تفسير ثبات العلامات وتحولها في آن . يثبت الدال لتوهم شبهه بمدلوله ويتغير لان هذا التوهم ليس الا توهما فلا يطيح به تحوله البطيء الا بعد عهود مترامية . وتكثر المترادفات مثلا ، لان كلا منها يلامس المدلول من زاوية بعينها ، صوتية — معنوية او معنوية فحسب . هذا كله في المرحلة التي تكون فيها اللغة مصغية الى نفسها ..

واذا كان سوسور قد رأى في علم الصوتيات نموذجا للالسنيات العامة ، فاننا ، بعدما سقناه ، لا نستبعد ان يصلح علم البلاغة العربي نموذجا لتحليل علاقة الدال بالمدلول في العلامة العربية اي لما نقترح تسميته **علم المجاز الصوتي** .

متى كفت اللغة العربية عن الاصغاء الى نفسها ؟ حدث ذلك ، بمعنى ما ، قبل التاريخ ، اي قبل عهد الكتابة ، وهو ، بمعنى آخر ، لم يحدث ابدا حتى اليوم .

من المحال التسليم بأن الانسان القديم لم ينتبه الى صوته ، حين اخذ ينادي فيجاب . ولعل يوم الانتباه هذا كان مبدأ استغنائه عن لغة الحركات (٤٤) وكان يوم الحمل بالسحر ، قبل ولادته . ما دام النداء يحول اليك وجه الآخر ، فلم لا يكون من شأنه اطفاء الصاعقة او اغراء الفنيمة . وقد ظل التأمل في سر الصوت — او سحره — دأبا للناس حتى هيدغر ! لذا يستبعد جدا ان تكون اللغة قد تكونت ونمت دونما التفات الى دقائق الصوت البشري وعناصره الحسية — الحركية . واذا صح ان أبا منا قد لا يعرف من اين تخرج الحاء ، فان ما يصعب تصديقه هو ان الذين كوّنوا نظام العربية الصوتي لم يكونوا يخشعون وهم يرقبون خروجها من حلوقهم وما تحدثه من حركات في جهازهم الصوتي .

وحتى عصر ابن منظور كان نظام الحروف لا يزال متصلا بنظام الكون فاعلا فيه . ولم يكن هذا قول الرقاة وصناع التعاويذ وحدهم . بل نحن نقرأ في مقدمة « لسان العرب » نفسه انه « لولا خوف الاطالة وانتقاد ذوي الجهالة ، وبعد اكثر الناس عن تأمل دقائق صنع الله وحكمته ، لذكرت هنا اسرارا من افعال الكواكب المقدسة ، اذا مازجتها الحروف تخرق عقول من لا اهتدى اليها ، ولا هجم به تنقيبه وبحثه عنها . » . وبعد ان يذكر ، عن ابي العباس البوني ، تساوي عدد الحروف

٤٤ — يأخذ **الآن** بقول داروين ان الصوت ينتهي بالتغلب على الحركة ، في التواصل ، **لان الصوت** يسمع في الظلام . ويضيف الى هذا سببين : ان الصوت يثير الانتباه والحركة تفترضه .. وان الصوت يصاحب العمل والحركة تقطعه .. ويرى الآن ايضا ان الصوت والحركة يتصاحبان ، خلال مرحلة ما ، قبل ان يغلب الاول الثانية .

ALAIN : Eléments de Philosophie. pp 159-160 - Paris (1941) - Col. «Idées» - Gallimard 1962

ومنازل القمر ، وتوزع هذه وتلك بين منازل سعود ومنازل نحوس ، يصف الحروف « اليابسة » « لصاحب الحمى البلغمية والمفلوج والملوق » والحروف « الباردة الرطبة » للحمى المحرقة والورم الحار .. « وخصوصا حرف الحاء لانها ، في عالمها ، عالم صورة » الخ .. لكن ابن منظور لا يلبث ان يلاحظ ميل هذه اليقظة ، امام الحروف ، الى الغروب في عصره : « ورأينا ، من معلمي الكتابة وغيرهم ، من يكتب على خدود الصبيان ، اذا تورمت ، حروف ابجد بكمالها، ويعتقد انها مفيدة . وربما افادت وليس الامر كما اعتقد . وانما لما جهل اكثر الناس طبائع الحروف ، ورأوا ما يكتب منها ، ظنوا الجميع انه مفيد فكتبوها كلها . » !! (٤٥)

واذا كانت تلاوة القرآن عند رأس المريض او تحجيبه بآياته ، امرا يجد تفسيره ، في اطار الدين نفسه ، فان « طبائع » حروف ابجد هذه و « خواصها » هي بلا شك بقايا سحر قديم ، بقي منه ايضا بعض ما نسب من خصائص لقيم الحروف في حساب الجمل وبقيت منه ميزة للعربية سوف نعود اليها .

وجه الله

وما دمنا قد اشتقنا الى صاحب الجلالة كلمن ، وغادرنا الثلاثي والثنائي الى الحرف المفرد ، فلا بأس في حديث اللام .. لم كانت لام الجر تفيد الملك في قولك : « لي كتاب » وتغني عن ذكر الحق في قولك : « لك ان ترفض » ؟ ولم استعملت للابتداء وللتوكيد وللقسم وللامر ؟ ولم كانت حرف تعريف (لا تلفظ معه الهمزة ، في الغالب) (٤٦) ؟ ولم كانت ، متى لحقت بها الف المد ــ لمدها طبعا ــ اداة نهي ونفي يصل احيانا الى الجنس !

نظن ان ذلك كله من الله ! ينبهنا الشدياق الى ان « ال » « من اسماء الله تعالى » (٤٧) . وقد وصلتنا من الجاهلية القريبة اسماء منها « خيليل » و « شهميل » و « عينيل » و « قسميل » و « مطرويل » ، واشهرها (اذا استثنينا اسماء الملائكة نحو جبرائيل) اسم شرحبيل بن حسنة ، احد قادة الفتح . ولا تختلف هذه الاسماء ، من حيث تركيبها ، عن اسم « عبد الله » والد النبي ، مثلا .. عدا ان ايل رب الساميين القديم ، كان قد نسي منذ

---

٤٥ ــ « **لسان العرب** » م م. المجلد الاول ــ مقدمة المؤلف ــ ١٤ ــ ١٦ .

٤٦ ــ هذه الهمزة (وتكون في الاغلب همزة وصل) هي « صويت اسناد » للام ، (**Phonème d'appui**) وانظر في وظائف اللام : **الزمخشري** م م. ص ٣٢٦ ــ ٣٢٨ .

٤٧ ــ « **الجاسوس** ... » م م . **ص ١٦٧** . ويذكر ابن منظور هذا المعنى ، الا انه يعتصم (ناقلا عن مجاهد والشعبي) بما ورد في القرآن من الاسماء الحسنى فيرفض ان يضيف « أل » اليها . و « أل » ، في الحقيقة ، هو القمر.. عبده العرب القدماء عبادة محبة ، لشعورهم بأنه يحبهم ! وعبدوا الزهرة ايضا .. وعبدوا الشمس عبادة رهبة (عبد شمس جد بني امية وشقيق هاشم جد النبي)، ولهم عذرهم في ذلك .. ولا يذكر ابن منظور معنى القمر لال . غير ان ما يثبته له من معان يشير الى القمر ، دون مواربة ، والى الوهيته القديمة . ففي « أل » بصيغة الفعل ، يجتمع معنى « برق » ومعنى « رفع صوته بالدعاء » ! وكم من الفاظ ضاعت اصول معانيها او نسيت. من يتوقع ان يجد « الحاجة » في المعجم شجرة شوكية تعلق بها ثياب الانسان ؟! وفي هذا ، وما هو اشد خفاء منه مما لم يعبه المعجميون اصلا ، محنة عبرة للمجاز الصوتي ولمزاح الباحث ايضا .

زمن بعيد ، ولم يبق له اثر الا في هذه الاسماء . اما لفظ الجلالة فبات علما لاله العرب ، يشركون به الاصنام ، ولم يرد ، في اي خبر ، انهم كانوا يمثلونه بصنم .

على ان الجاهلية القديمة حملت الينا اسماء من طراز « الشرح » و « ايل شرح » و « السمع » و « ايل سمع » و « اليثع » و « ايل يثع » الخ .. مما يدل على وجود « لفتين » في اسم ذلك الاله هما « ال » و « ايل » ، وقد كتبه اللاتينيون بعد اليونانيين : «EL»

وكانت « ن » او « ان » في آخر الكلمة اداة التعريف عند العرب الجنوبيين وكانت « ه » او « ها » في اول الكلمة اداة التعريف عند الصفويين وعند قوم ثمود ، كما في العبرانية، « ويشير ادخال اداة التعريف على « اله » عند العرب الجنوبيين والشماليين ، وعند العبرانيين سؤالا (...) فهل قصد بكلمة « الاله » اله معين خاص ، او لم يقصد ذلك (...) او اريد بذلك اله معين هو اله الساميين الاكبر القديم الاله « ايل » ويسمى ايضا بـ « اله » (...) » ؟ (٤٨)

ثمة اذن اكثر من حظ في ان تكون لفظة اله (التي يقول المعجميون العرب ان لفظ الجلالة مشتق منها) هي نفسها اسم «ال» .

وما هي « ال » ؟ انها اللام . فليست الهمزة سوى مهماز (او بالعبارة الحديثة « صويت اسناد ») يعين اللام على الخروج . هل يستغرب بعد ذلك ان تحتكر اللام ، في النحو، وظائف القدرة ؟ فاذا قلت : « لاذهبن » فكانك تقسم بالله على الذهاب . واذا قلت : « لا تكذب » فكانك تنسب النهي الى الله . واذا عرفت بها فكأن المعرفة بالله الخ .. ولعل في هذا ما يوحد وظائف اللام التي وزعها النحو على ابوابه المختلفة . ليس هذا فحسب بل ان « ال » **اسم** موصول ، كان يدخل على الافعال، بمعنى « الذي » ، ولم ينقطع استعماله حتى اليوم ، وان ندر . ولعل الانسان قد اعتد بنفسه كثيرا ، فقل دخول الله على الافعال !

هذا كله لا ينسب الى اللام دلالة فحسب ، بل يمنحها **امتيازا وجوديا** ، ان صح التعبير، (Privilège existentiel) على سواها .

وهو يفتح بابا صغيرا على حيز مظلم .. حيز التراتب المحتمل بين قيم الحروف التعبيرية . واذا نحن غامرنا ، مرة اخرى ، بعقلنا ، في هذه المتاهة ، وخرجنا به سالما من اسنان الشين واخفاف الجيم وبطن النون(٤٩) وسائر الحروف المسلحة ، فقد يتبين ان « كلمن »

---

٤٨ ــ **علي (جواد) : تاريخ العرب قبل الاسلام** ــ المجلد الخامس ــ ص ١٦ ــ ١٧ و ص ١٤٧ ــ ١٥٦ . بغداد ١٩٥٥ وما ورد هنا عن الاله « ال » ومركباته ماخوذ عن هذا المصدر .

٤٩ ــ **يقول العلايلي في : « مقدمة لدرس لغة العرب »** ــ ص ١٣٠ ــ القاهرة ١٩٣٨ : ان معنى الشين السن (مفرد اسنان) ، ومعنى الجيم الجمل ، ومعنى الراء الراس . ويبني من ذلك كلمة « شجر » التي يرى ان العرب جمعوها من ثلاثة مقاطع بسيطة ، يشير اولها الى الجذور والثاني الى العظم والثالث الى الراس . ولا نجد هذا التأويل مستقيما لانه ينطوي على افتراضين ضعيفين : ١ ــ ان يكون العرب قد دجنوا الجمل قبل ان يسموا الشجرة . فالتعبير عن الضخامة هنا ، باسم الجمل ، يفترض ان يكون الجمل قد صار ملازما لحس العرب وصاروا محتاجين اليه قبل ان يدونوا ثمرة واحدة . وهذا مستبعد . ٢ ــ ان يكونوا قد رأوا من الشجرة جذورها قبل ان يروا فروعها (فوضعوا الشين في اول الكلمة) ، وهذا مخالف لقانون « الصورة الغالبة » .

ليست صدفة وانها « عنصر » اللغة فعلا ، يضم « اشرف » حروفها .. (٥٠)

رموز الفم

لدينا في « شبه » الالفاظ بمعانيها كتابان كبيران : واحد لم يكتبه ابن جني ، وآخر احترقت مخطوطته في قصر الشدياق بالاستانة (٥١) .! ولدينا صفحة هنا وعشر صفحات هناك .. ما هي المقومات الاولى لهذا « الشبه »؟ اي ما هي قواعد «المجاز الصوتي»؟ .. هل تتكون لغة في غنى العربية من تقليد اصوات الحيوانات ، وصوت الريح حين تهب ومن التعبير عن صورة الشيء الطويل بصوت طويل ؟ حاشا ! ولو كثرت حيل المجاز .

تسوقنا هذه الاسئلة الى الميم والنون من « كلمن » . ولا بد لنا من الاقرار بأننا سوف نقصر في وصفهما كثيرا . فحين تريد استيفاء وصف صويت ما (ولا نقول تحليله لان سكان الصحراء لم يكونوا يرسلون اصواتهم الى المختبر) ، يكون عليك ان تواجهه من زوايا متعددة . ولما كان الصويت صورة حسية ـ حركية ، فان ايسر التمييزات هو ان تميز فيه بين ما هو حسي (اي الصوت نفسه) وما هو حركي (اي تعين مخرج الصويت بالصورة التي تتخذها حركاتاعضاء الجهاز الصوتي) (٥٢).

(image prégnante) في الادراك الحسي .

ونحن نؤثر تأويل « شجر » بدلالات احرفها في جدول العلايلي المثبت هنا (انظر الملحق الثالث) . فاذا دلت الشين على « التفشي بغير نظام » (تشابك الفروع والاغصان) ، ودلت الجيم « على العظم مطلقا » (ضخامة الجذع والفروع) ودلت الراء « على الملكة » (تمكن الجذور في الارض) ، حصلت لنا صورة دقيقة جدا للشجرة . وسنرى ان السبب في خطأ العلايلي هنا هو العبور ، دون وسيط ، من المقطع الصوتي الى الصفة الحسية . والوسيط ، في رأينا ، هو **خواص** المقطع الحسية ـ الحركية .

٥٠ ـ قد نستثني الكاف من هذا « الشرف » (رغم «اصلاحها للامور ») وقد نضيف الراء ، فنحصل على « الاحرف المائية » في التقسيم القديم .

٥١ ـ يقول ابن جني انه لو شاء الاطالة في ذلك « لكتبت من مثله اوراق مئين » ـ « **الخصائص** » مم . المجلد الثاني ص ١٦٨ . وقد احترق مخطوط « **منتهى العجب** » قبيل موت الشدياق ولم يبق منه الا نتف صغيرة اثبتها المؤلف في كتبه الاخرى . **شبلي** مم . ص ٢٨ و ٥٢ .

٥٢ ـ قد يكون ثمة ضرورة ، في ما نحن ذاهبون اليه ، لاعادة تقسيم الصويتات ، على اساس ظواهري بحت ، لا على اساس موضوعي . فما يهم هنا ليس ما يحصل فعلا عند اخراج الصويت ، بل ما يكون هناك **احساس** بحصوله ، (بما في ذلك الحركات التي تحدث في الجهاز الصوتي) . فنستبقي مثلا ، في هذا التقسيم احرفا للصفير وهي تلك التي تحس ، عند اطالة اخراجها ، بصرير الهواء المحتك بالاسنان ، وهو ينفذ من بينها : « اسس » « اشش » .. « ازز » « اصص » ..) .. وقد نضيف اليها الراء التي تكرر نفسها في ما يشبه القرقرة (وتسمى بالفرنسية (r roulé) .. وتستعمل هذه الحروف (مكررة غالبا) لمحاكاة بعض الاصوات ، نحو وسوسة وشقشقة وازيز وصرصرة وخرير الخ .. ولما كانت السين اكثر صويتات الصفير خرسا (او « صمما » في المصطلح العلمي) فقد استعملت لمحاكاة الهمس . وربما استعير هذا ـ مع ركون اللسان عند اخراجها ـ للتعبير (مع الحروف الاخرى المناسبة) عن السكون والصمت . وقد يكون هذا بدوره اصلا لما يثبته العلايلي لها من دلالة على الاتساع والانبساط . فما يتحرك او يضج صفير دائما بالقياس الى بحر الصحراء الراكن . اما الراء فتتأتى لها الدلالة على « شيوع الصفة » و « تمكن الملكة » من تكرارها في الفم لا من دخولها في لفظ الراس الخ ..

وهذا بحد ذاته كثير ، نتركه لاهله .. ما نريد قوله هو ان كلا من هذين الوجهين ، ومن تفاصيلهما ، **صالح للتحول الى رمز** .

وقد يصح ان تنطلق هذه الرؤية الرمزية للصوت وجهازه من وصف الجهاز في حالة السكون : مدخله – اي الشفتين – ونطعه (او سماءه) وغاره الاسفل (او أرضه) – اي الفم – وغوره أي الحلق (٥٣) ، ثم محتوياته وتفاصيله أي الاسنان واللثتين واللسان واللهاة .. والريق والهواء .. ثم تجويف الانف . وللسان وحده عند العرب اسلة وشباة وعكدة واشياء اخر ! فاذا واجهت صلابة الاسنان بطراوة اللسان وخفة الهواء بسيولة اللعاب ، وارتفاع السماء بانخفاض الارض وقرب المدخل ببعد الغور ، الخ .. خرجت من هذا الوصف الجامد وحده بعالم رمزي غني . حتى اذا غادرت عالم السكون الى عالم الحركة ، لم تعد تعرف اين تبدأ واين تنتهي .. من انفراج الشفتين الى انطباقهما الى انضمامهما .. فالى انضمامهما على انفراج او على انطباق .. فالى تراجع السفلى وملامستها حد القواطع العليا (٥٤) ومن فرك اسلة اللسان باللثة او بالاسنان الى ارتجاج اللهاة حين تنحو شباته نحو الارتطام بالسقف ، الى انغلاق اللهاة او انفتاحها ، الى ترطيبه بالريق او انحباس الهواء عنه او خروجه ملامساحافتيه، الخ .. واذا خرجت من هذا كله الى ما يحدثه تكوكب هذه الحركات ، على صور مختلفة باختلاف الصويتات ، من صفات لكل صويت، من جهر وهمس وشدة ورخاوة ، ادركت انك، وان كنت لا تزال في عالم الصويتات المفردة ، تائه حتما في عالم احتمالات بلاغية لا تعرف قراره . فكيف اذا جمعت صويتين معينين – وهو ما يضطرك اليه النطق – وخرجت من هذا الجمع وحده بعشرين احتمالا . فتحريك الميم مثلا يكفي لضرب صفاتها بأربعة . فهي بعد ان تكون قد استمدت « قيمها » من تقابلها مع الاحرف الشفوية الاخرى (لجهة انضمام الشفتين في مقابل الباء وانطباقهما في مقابل الفاء) ، وربما مع الاحرف الحلقية لجهة القرب والبعد ، الخ ..) تجد هذه القيم، وقد تضاعفت عددا ، اذ خرج للميم المحركة قيم فرعية بالمقابلة مع حالاتها الثلاثة الاخرى .. وكيف بك الان اذا جمعت ، في لفظة ، ثلاثة صويتات او خمسة او عشرة ؟

واذا لم يكن الامر كذلك ، فلماذا كانت الميم علامة الجمع ولماذا كثرت النون في الضمائر **ما عدا ضمير الغائب** ، (٥٥) ومن اين جاءت

---

٥٣ – في اكثر الالفاظ التي يتدخل الفم في معناها ، شيوعا واشدها التصاقا بالحاجة ، وهو « بلع » ، تبدو هذه الرمزية مكشوفة : من الباء (وهي من حروف الشفة) الى اللام (وهي من حروف الفم المائية) الى العين (وهي من حروف اقصى الحلق) ، تعرف اللقمة مسارها .. وتشبهها « بلغ » ، بمعنى « ادرك غايته » ، ويسمي العرب اللقمة « بلغة » .. من يجرؤ على القول اننا نبلع كيفما اتفق ؟!

٥٤ – هذا يعيدنا الى « كنف » (من جدولنا الاول) ومعناها اقام حظيرة لانعامه . فالفاء هنا هي بمثابة السياج . ذلك ان الشفة ترتد ، عند لفظها الى الخلف (نحو الماشية) وتلامس حد القواطع العليا . وقد كثرت الفاء في الالفاظ التي « تحد » : طرف ، حرف ، شفا ، حافة ، ريف ..

٥٥ – في ضمير الغائب (الهاء ، هو ، هم) غلب معنى الغياب على معنى « البطون » . وفي جدول العلايلي ان الهاء (وهي حلقية) « تدل على التلاشي » .

نون النسوة ؟

اظهر ما في الميم هو انجماع الشفتين عند التلفظ بها . ومنه استعير « الانجماع » الذي يجعله العلايلي دلالة لها . ومنه استعيرت ميم الجمع . وحين يبلغ هذا الانجماع غايته يودي الى القطع شأنه في افعال الشدياق التي لامها ميم (٥٦) . اما النون ، فيقول الشدياق ان العرب آثروها بسبب « الغنة » ، فجعلوها « علامة للاعراب ولتوكيد الافعال وعلامة للمثنى والجمع فيها وفي الاسماء وركنا من ضمير انا وانت واخواتها . » (٥٧) و « غنة » الشدياق هذه لا تفسر شيئا ، بل هي المحتاجة الى تفسير .. فمخرج النون هو اكثر المخارج مساسا بالخيشوم . على ان الاثر المسموع لترددها في الكلام او لمخالطتها صويتات اخرى (نحو الراء واللام) هو ظهور الكلام وكأنه يخرج من البطن . لذا وصف الاخن او الاغن بأنه ينطق « من بطنه » . ولذا سمي بالفرنسية مثلا Ventriloque ولذا خلص العلايلي (على صعيد آخر) من تحليل مفرداته الى القول بأن النون تدل « على البطون في الشيء » ، ولذا كان معنى لفظة النون (على صعيد ثالث) الحوت !

ولذا ، في ما نرى ، دخلت النون ضمائر المتكلم والمخاطب . فهي فيها تدل على باطن شخص حاضر ، يتوصل اليه الضمير عبر ظاهره . فكأنك اذا قلت لانسان : انت، عبرت جسده لتصل الى قوامه الباطن ، وهو ما تخاطبه فيه . وهذا هو معنى « الضمير » لفظا ووظيفة . لهذا ايضا اختيرت النون لوزن « انفعل » (وقد يقع عليها ، لسبب صوتي ، ابدال لا يبطل القاعدة) . فهذا الوزن يماثل بالفرنسية ما يسمى « الافعال الضميرية » Verbes pronominaux وهي التي تقع على الفاعل نفسه ، في نحو قولك : «انسحب» .. فترى الفعل ، بفضل النون ، يتجه الى باطن الفاعل ، قبل ان يرتد الى المفعول ، اذا تعدى !. ولا تخرج نون النسوة عن هذه الدلالة . فما الذي هو اكثر تمييزا بين الانثى والذكر من البطن الولود ؟!... الخ ، الخ..

لا تكمن قدرة اللغة على التكاثر اذاً في القلب والابدال . فهذه متاهة يستحيل ان تخرج منها قاعدة . ولا في اخذ ثلاثة احرف، مثلا ، تكون الاولى في ثلاثة الفاظ قديمة ، لبناء لفظ جديد (٥٨) . ولا في توهم محاكاة الاصوات والصفات ، **مباشرة** ، بالصوت البشري ، شأن تقليد الطفل لمواء الهرة . فهذا كله ، مهما طرأ عليه من تحولات **مجانسة** له ، لا ينتج لغة من طراز العربية . لا بد لنا اذاً من ان نفترض في اصل العربية تحولا جذريا اطلقها ذات يوم ــ او ذات الف سنة ــ من عقال المحاكاة . ذاك هو اصغاء العربي الى **صوته هو** (لا الى اصوات الطبيعة) ومغامرته ببناء مفردات توظف الطاقة الرمزية للنظام الصوتي المعاش في التعبير عن معان توجد في الحس وفي الحركة وفي الفاظ المحاكاة اولا ، ثم

٥٦ ــ يذكر الشدياق عددا كبيرا من الافعال المنتهية بميم تعني القطع والكسر ، وذلك في نص مأخوذ من كتابه « منتهى العجب .. » . مذكور في : **شبلي** مم . ص ٢٥٧ .

٥٧ ــ « سر الليال ... » مم . ص ٢٧ .

٥٨ ــ انظر اعلاه تأويل العلايلي لـ « شجر » .

يتكون ، ويتحول ، مع تجسدها في الفاظ المجاز ، نظام العالم . ولا يحتاج هذا الى افتراض وعي رسم خطة جهنمية لتكوين اللغة. فان قواعد المجاز الصوتي تتكفل بارساء نفسها ، مع تطاول المدة ، شأن أي نظام جماعي تزداد فعاليته كلما ازداد جهل اهله باوالته السرية . واذا بدا أن لفظة « الاصغاء » توجب هذا الوعي ، فما ذاك الا لاننا ، نحن ، لم نجد لفظة نعبر بها عن عمل يشبه عمل الجسم حين يصحح وضعه وهو نائم . فالاصغاء هنا تلمس قريب جدا ، في بدايته ، من الحس . ولا يكاد التعبير بـ « غنة » النون عن « البطون في الشيء » يتجاوز ، الا بقليل ، تقطيب الجبين، من الحزن مثلا ، خصوصا حين يكف التقطيب عن ان يكون حركة « طبيعية » ، ليصير لعبا افقدته العادة وعيه ، نوصل به الحزن الى الاخر . غير ان هذا القليل كثير .

Words ! Words ! Words !

واذا نحن شئنا ان نأتي بدليل قاطع على انتفاء الحاجة الى الوعي في مطاوعة المفردات لقواعد المجاز الصوتي ، فما علينا الا ان ننظر قليلا في حالنا مع لغتنا اليوم . من منا لم يردد يوما ان العربي يؤخذ بـ «سحر الكلمة»؟ وفي اية لغة ، حية حاضرا وتراثا ، غير العربية ، لا يكاد يعرف معظم الشعر من معظم النثر الا بالاوزان (٥٩) ؟ ولماذا كان السجع ؟ الخ ..

نعلم ان الاجوبة شتى .. القرآن الذي حمل اكثر المعاني وضعية في اكثر القوالب جلالا ، فشاعت المعاني في نفوس العرب وعليها مسحة من قوالبها !. موسيقى اللغة !. تخبطنا في مرحلة ما قبل الراسمالية ! الخ .. لكن هذه الاجوبة لا تعدو ان تكون دعوات الى تكرار الاسئلة .

يقول سارتر ، في مكان ما ، ما معناه ان الكلمة « تنعدم » لتفصح عن القصد . ما اروع التضحية !.. لكن الكلمة العربية ترفض ان تنعدم .. ففي « رايها » ان قصدها ليس

٥٩ ــ في عصرنا هذا ، بات كل من راهق البلوغ واللغة يبيح لنفسه السخرية من حد قدماء العروضيين للشعر بانه « الكلام الموزون المقفى » . والحال ان **ابن خلدون** نفسه ، في نقده لهذا الحد ، لم يجد ما يضيفه اليه سوى شروط كان العرب يشرطونها لرفع طبقة الكلام عامة ، شعرا كان ام نثرا . اي ان شروطه (البلاغة ، الاستعارة والاوصاف ، استقلال الجزء عما قبله وبعده) نعثر عليها متحققة ، جملة ، في الجيد من الخطب والمقامات مثلا .. وهي لم تكن ، لولا الوزن والروي ، لتكفي حدا للشعر . («**المقدمة**» ــ الباب السادس ــ الفصل الرابع والاربعون والفصل السادس والاربعون) . والحال ايضا ان حد الشعر كان يسيرا على العروضيين ، دون الاكثار من الشروط ، لان الشعر ، بتأصله في المفردة العربية ، هو اصل لكل ما اطلق عليه لاحقا اسم الادب . فالمشكلة ليست في حده ، بل في حد الفنون الاخرى ، المضطربة ابدا بين الانفصال عنه والاقتداء به . ذلك ان فنون النثر العربي جاهدت مرونا للاستقلال عن الشعر ، وما تزال تشدها اليه ، من هنا او هناك ، حبال سرة خفية، لم تفلح في قطعها جميعا . والعلة الاصلية (وليست الوحيدة ، بطبيعة الحال) لهذا الاضطراب المرير هي في صمود « مشيمة » اولى من المفردات ــ الاشياء ، المضادة اصلا للنثر . لذا لم يكن سؤال اللغة العربية : ما هو الشعر ؟ فالشعر ماثل دائما (دون ان يكون معنى مثوله انه جميل ، كله او جله ، فتلك مسألة اخرى) . ولذا صح ان نسأل ، دون اي تعمد للاغراب : **ما هو النثر العربي ؟ هل هو موجود ؟ هل هو ممكن ؟ ما هي شروط امكانه ؟** .. فقد لا يكون النثر العربي ــ حين يقترب من **مثاله** ــ الا الشعر العربي غير الموزون وغير المقفى !..

احسن منها ! وهي ، لكونها مؤسسة على المجاز الصوتي ، شيء لا لفظة .. وفي الكلام العربي شبه بالتمثيل اكثر مما فيه من الشبه بالكلام .. مقدرة الممثل القدير هي في ان يقنعك انه هو ما هو على الخشبة لا في ان يردك الى ما هو في البيت . وحين تستعير اللفظة حيل المجاز الصوتي لاداء معناها يمسي عسيرا عليك ان تعدمها لتنفذ الى المعنى .. فهي ، اذ ذاك ، شيء منحوت ، منمنم ، مهندس .. اثر فني ! من « يعدم » الموناليزا ــ اللوحة ، ليصل الى الموناليزا ــ المراة (التي يقال انها كانت رجلا !) ؟ اللفظة العربية هي مدلولها او ظله ، او ، ان شئت ، تمثاله الثمين .. تتبرج وتقف بينك وبين معناها ! شانها ، في ذلك شأن الشعر وشأن تمثال موسى الذي هو ، في كنيسة بطرس ، موسى نفسه ، وشأن لورنس اوليفيه الذي هو ، على الخشبة ، هملت نفسه . والعربي ما زال ــ رغم ان المجاز الصوتي ليس الا جزءا مما قبل تاريخه ــ يصغي الى صوته .. وهو ، في اصفائه هذا ، اولى الناس بالرد على سوسور . فيكون عليه ان يخترق جدار الصوت ليصل الى العالم ..

وقد خطرت لي الان ترجمة لصيحة هملت المشهورة : كلمن ! كلمن ! كلمن !

الملحق الاول : جدول « ك ن ن »

كنب : « غلظ » و « استغنى » ، « والكنب غلظ يعلو الرجل والخف والحافر واليد او خاص بها اذا غلظت من العمل (...) واكنب عليه بطنه اشتد ولسانه احتبس وكنبه في جرابه(...)كنزه والكانب المتليء شبعا(...)

كنت : « في خلقه قَوي والكُنتي (...) الشديد والكبير (...) وقد كَنِت (...) حَشِن (اي انتن من الداخل) » (١)

الكنثة : « نَوردجة تتخذ من آس واغصان خلاف ينضد عليها الرياحين ثم تطوى ، واعرابه : كنثجة ، وبالنبطية : كنثا . »

ك ن د : « الكنود » كفران النعمة وبالفتح الكفور (...) واللوام لربه تعالى والبخيل والعاصي والارض لا تنبت شيئا (٢) ومن يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده والمراة الكفور للمودة والمواصلة (...) .

ك ن ذ : غير موجود .

ك ن ر : دخيل ، حسب « اللسان » ..

ك ن ز : « اسم للمال اذا احرز في وعاء (...) وقيل الكنز المال المدفون وتسمي العرب كل كثير مجموع يتنافس فيه كنزا . »

ك ن س : « الكنس : كسح القمام عن وجه الارض (...) قال اللحياني : كناسة البيت ما كسح منه من التراب فألقي بعضه على بعض

١ ــ غير موجود في « اللسان » ، وقد اثبت « الكنتي » في « كون » وجعل معناه : من يكرر في كلامه « كنت » « كنت » .

٢ ــ من البين ان هذا هو المعنى الحقيقي ، والمعاني الاخرى كنايات منه . وقد نبه الشدياق في نقده لصاحب « القاموس » الى « ان ائمة اللغة يقدمون المجاز على الحقيقة غالبا او يعدلون عن تفسير الالفاظ بحسب وضعها الاصلي . غير ان المصنف (اي الفيروزبادي) زاد عليهم كثيرا في هذا النوع (...) » . ولا شك ان هذا يضع امام الباحث عقبة اضافية .

انظر : **احمد فارس الشدياق ــ الجاسوس على القاموس** ص ٢٦٣ .

(...) والمكنس : مولج الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر ، وهو الكناس ، (...) وهو من ذلك لانها تكنس الرمل حتى تصل الى الثرى (...) وهو موضع في الشجر يكتن فيه ويستتر ، (...) »

ك ن ش : « التهذيب : ابن الاعرابي الكنش ان يأخذ الرجل المسواك فيلين راسه بعد خشونته (...) والكنش: فتل الاكسية. ».

ك ن ص : « (...) ابن الاعرابي : كنص اذا حرك انفه استهزاء (...) ويروى بالسين .

ك ن ظ : « (...) الكنظ بلوغ المشقة من الانسان (...) قال ابو تراب : سمعت ابا محجن يقول : غنظه وكنظه اذا ملاه وغمه » .

ك ن ع : (...) انقبض وانضم (...) والنجم مال للغروب (...) والعقاب ضمت جناحيها للانقضاض (...) والكنع بالكسر العنك (اي الاصل) (...) .

ك ن ف : « انت في كنف الله تعالى (...) في حرزه وستره وهو الجانب والظل والناحية (...)ومن الطائر جناحه (...) و (كنف) الابل والغنم (...) عمل لها حظيرة يؤويها اليها . و (كنف) عنه عدل . (...) . (و) الكنيف (...) هو السترة والساتر والترس والمرحاض وحظيرة من شجر للابل (...) »

ك ن م : « التهذيب : اهمل الليث نكم وكنم واستعملهما ابن الاعرابي فيما رواه ثعلب عنه، قال : النكمة المصيبة الفادحة . والكنمة الجراحة . » .

ك ن ن : (هي المضاعف الذي انطلقنا منه.)

ك ن ه : « الكنه بالضم جوهر الشيء وغايته وقدره ووقته ووجهه (...) »

كنى : « به عن كذا (...) كناية تكلم بما يستدل به عليه (...) .

الملحق الثاني : جدول « ن ك ك »

ن ك أ : « (...) نكأ القرحة كمنع قشرها (اي تكون قشرتها) قبل ان تبرأ فنديت (...)»

ن ك ب : نكب (...) عدل (...) نكب الاناء هراق ما فيه والكنانة نثر ما فيها و (نكبت) الحجارة رجله لثمتها او اصابتها (...) والنكيب دائرة الحافر .

ن ك ت : « النكت ان تضرب في الارض بقضيب فيؤثر فيها وان ينبو الفرس والناكت ان ينحرف مرفق البعير حتى يقع على الجنب فيخرقه والنكتة بالضم النقطة . »

ن ك ث : النكث بالكسر ان تنقض اخلاق الاكسية لتغزل ثانية (...) ونكث العهد والحبل (...) نقضه (...) والسواك تشعث راسه و (النكاث) بثر يخرج في افواه الابل .

ن ك ح : « النكاح الوطء (...) ونكح النعاس عينه غلبها والمطر الارض اعتمد عليها (...)

ن ك د : نكد عيشه (...) اشتد وعسر والبئر قل ماؤها ونكد الغراب(...) استقصى في شحيجه (...) و (نكد) فلانا منعه ما سأله او لم يعطه الا اقله (...)

ن ك ر : «(...) النكر بالضم الدهاء والفطنة (...) والمنكر (...) والامر الشديد والنكرة خلاف المعرفة وما يخرج من الحولاء والخراج من دم او قيح (...) ونكر الامر (...) صعب (...) ونكِر فلان الامر (...) جهله والمنكر ضد المعروف والنكراء الداهية (...)

ن ك ز : « نكزت البئر (...) فني ماؤها (...) والحية لسعت بانفها و (النكز) الغرز بشيء محدد الطرف (...) »

ن ك س : « نكسه قلبه على راسه (...)

والولاد المنكوس ان تخرج رجلاه قبل راسه .
(. . .) »
ن ك ش : « نكش الركية (. . .) اخرج ما فيها من الجيئة والطين (. . .) و (نكش) الشيء افناه و (. . .) (المِنكَش) النقاب عن الامور.
ن ك ص : نكص عن الامر (. . .) تكأكأ واحجم وعلى عقبيه رجع عما كان عليه من خير . خاص بالرجوع عن الخير ووهم الجوهري في اطلاقه او في الشر نادر (. . .)
ن ك ظ : النكظ (. . .) الجهد والعجلة (. . .) والجوع الشديد (. . .) والتنكظ الالتواء والبخل وشدة الحال في السفر ونكظ حاجته عسرها .
ن ك ع : « نكعه عن الامر (. . .) اعجله عنه (. . .) ونفصه بالاعجال (. . .) وضرب بظهر قدمه على دبره (. . .) »
ن ك ف : نكف عنه (. . .) انِف منه وامتنع (. . .) وبحر او جيش لا ينكف لا يبلغ آخره ولا يقطع ولا يحصى ونكف الدمع نحاه عن خده باصبعه وعنه عدَل (. . .)
ن ك ك : (سبق ذكره) .
ن ك ل : نكل عنه (. . .) نكص وجبن ونكل به (. . .) صنع به صنيعا يحذر غيره او نكله نحاه عما قبله (. . .)
ن ك م : النكمة النكبة والمصيبة الفادحة .
ن ك ه : نكه له وعليه (. . .) تنفس على انفه او اخرج نفسه الى انف آخر و (نكهت) الشمس اشتد حرها . ونكهه (. . .) واستنكهه شم ريح فمه (. . .)
ن ك ى : نكى العدو قتل وجرح و (نكى) القرحة جَرحها . (. . .) .

الملحق الثالث جدول دلالات الحروف للشيخ عبدالله العلايلي (١)

١ ـ الهمزة : يدل على الجوفية ، وعلى ما هو وعاء للمعنى ، ويدل على الصفة تصير طبعا . .

٢ ـ الباء : يدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغا تاما، ويدل على القوام الصلب بالتفعل. .

٣ ـ التاء : يدل على الاضطراب في الطبيعة او الملابس للطبيعة في غير ما يكون شديدا . .

٤ ـ الثاء : يدل على التعلق بالشيء تعلقا له علامته الظاهرة سواء في الحس او المعنى. .

٥ ـ الجيم : يدل على العظم مطلقا .

٦ ـ الحاء ، يدل على التماسك البالغ وبالاخص في الخفيات ، ويدل على المائية . .

٧ ـ الخاء : يدل على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشي مطلقا . .

٨ ـ الدال : يدل على التصلب ، وعلى التفير المتوزع . .

٩ ـ الذال : يدل على التفرد . .

١٠ ـ الراء : يدل على الملكة ، ويدل على شيوع الوصف . .

١١ ـ الزاي : يدل على التقلع القوي . .

١٢ ـ السين : يدل على السعة والبسطة من غير تخصيص . .

١٣ ـ الشين : يدل على التفشي بغير نظام . .

---

١ ـ علي (اسعد) : « تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي » ٠مم ٠ ص ٦٣ ـ ٦٤ ٠ ورغم ما ينطوي عليه هذا الجدول من اقدام عجيبه وجهد رائع ، لا نجد لزاما ان يعتمد بحذافيره . على ان حدسي خلل فيه هنا او هناك ايسر بكثير من اثبات هذا الخلل ومن اصلاحه . .

١٤ ــ الصاد : يدل على المعالجة الشديدة . .
١٥ ــ الضاد : يدل على الغلبة تحت الثقل . .
١٦ ــ الطاء : يدل على الملكة في الصفة ، وعلى الالتواء والانكسار . .
١٧ ــ الظاء : يدل على التمكن . .
١٨ ــ العين : يدل على الخلو الباطن ، او على الخلو مطلقا . .
١٩ ــ الغين : يدل على كمال المعنى في الغؤور او الخفاء .
٢٠ ــ الفاء : يدل على لازم المعنى ، اي يدل على المعنى الكنائي . .
٢١ ــ القاف : يدل على المفاجاة التي تحدث صوتا . .
٢٢ ــ الكاف : يدل على الشيء ينتج عن الشيء في احتكاك . .
٢٣ ــ اللام : يدل على الانطباع بالشيء بعد تكلفه . .
٢٤ ــ الميم : يدل على الانجماع . .
٢٥ ــ النون : يدل على البطون في الشيء، او على تمكن المعنى تمكنا تظهر اعراضه . .
٢٦ ــ الهاء : يدل على التلاشي . .
٢٧ ــ الواو : يدل على الانفعال المؤثر في الظواهر . .
٢٨ ــ الياء : يدل على الانفعال المؤثر في البواطن . .